قصيدة الخنساء

" يذكرني طلوع الشمس صخرا "

دراسة بلاغية تحليلية

دكتور

شعبان محمد على كفافي

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالزقازيق

فرع جامعة الأزهر

يُـؤرّقُني التـذكّر حـينَ أُمسـي ∴ فَأُصْبحُ قد بليتُ بفرط نُكْس

يُذكّرُني طُلوعُ الشمسِ صخرا ∴ وَأذكـرُه لِكـلّ غـرُوبِ شَـمْس

فيـا لهفـي عَليْـهِ ولَهْـفَ أُمّـي ∴ أيُصْبحُ فى الضّريحِ وَفيهِ يُمسِي؟

تماضر بنت عمرو (الخنساء)

قصيدة الخنساء

" يذكرني طلوع الشمس صخرا "

دراسة بلاغية تحليلية

بقلم

د/شعبان محمد على كفافي

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

بالزقازيق فرع جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء سيدنا محمد – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه – ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الشعر ديوان العرب ومرآة حياتهم، ولسانها الصادق المترجم عن أحوالهم، فهو سجل مفاخرهم ومآثرهم وأنسابهم وأحسابهم .

وإذا ما قرأنا في دواوين الشعر العربي القديم وجدنا فيه كل قيمهم الأخلاقية الفاضلة التي كانوا يفضلونها ويؤثرونها، وكانوا بها يتغنون ويتفاخرون .

وكذلك نجد فيه – أيضا – كل جوانب الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية. وكل ما يتصل بحياة العرب قديما.

وليس بخاف على أحد أن العرب قد اعتنت بالشعر اعتناء كبيرا، ولا أدل على ذلك من مدرسة الحوليات والتي كان زعيمها زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني حتى أطلق عليهم عبيد الشعر .

"ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه

اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره إشفاقا على أدبه وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد (الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات) ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا"[1].

ولم لا يفعل الشعراء ذلك وهم يتفاضلون ويتمايزون بما يكتبون من شعر ، وما الأسواق الأدبية منا ببعيد، فقد كان النابغة الذبياني يدير سوق عكاظ ويفاضل بين الشعراء من خلال شعرهم ، ورأينا كيف حكم النابغة بين الخنساء وحسان بن ثابت عندما فضل الخنساء على حسان بن ثابت، وقد ذكرنا هذا الموقف والحوار الذي دار فيه كاملا في ثنايا البحث [2] .

إذًا لقد كان الشاعر العربي القديم يعتني ويهتم بقصيدته ، فكان يقلبها ذات اليمين وذات الشمال حتى تستوي على سوقها، لتعجب القارئ المتذوق العاشق لهذا الشعر ولهذه اللغة، ومن ثم يجد له مكانا عليا بين فحول الشعراء ، ولقبيلته مكانا ساميا بين القبائل .

وليس غريبا أن يهتم الرسول -ﷺ- بالشعر ويبرز قيمته في قوله: (إن من الشعر حكمة) [3] وفي رواية أخرى (إن من الشعر حكما)[4].

وكذلك اهتمت الصحابة من بعده - ﷺ - بالشعر وعرفوا قدره، ولذلك قال ابن عباس : "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"[5] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، ج٢ ، ص٨ تقديم وشرح د / علي أبوملحم ، دار مكتبة الهلال ، الطبعة الأولى ١٤٠٨/١٩٨٨م.
(٢) البحث ص ١٣٤٧.
(٣) فتح الباري ، ج١٠ ، ص٥٥٣، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – محب الدين الخطيب – دار الريان للتراث القاهرة الطبعة الثانية .
(٤) فتح الباري، ٥٥٦.
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج١ ، ص١٥٧ دار المعرفة بيروت – بدون .

ولقد كان الشعر القديم وعاء للغة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة وعروض وغيرها، ومن ثم أخذت منه اللغة قواعدها. وتأكيدا لذلك فقد ذكرت نماذج من شعر الخنساء في شواهد البلاغيين[1].

ولقد تصدى الإمام عبد القاهر الجرجاني بكل قوة من أدلة وحجج وبراهين لهؤلاء الذين زعموا أن الشعر ليس فيه كبير طائل وأن ليس إلا ملحة وفكاهة ، أو بكاء منزل أو وصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل أو إسراف قول في مدح أو هجاء ، وأنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح دنيا ودين.

تلك كانت حجة الذين ذموا الشعر في عهد الإمام عبد القاهر، فجلىّ الإمام هذه الشبهة، وبين منزلة الشعر من إعجاز القرآن الكريم، فقال : " وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وباتت وبهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر ، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيها قصب الرهان.

ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد الشعر على بعض : كان الصادُّ عن ذلك صادا عن أن تعرف حجة الله تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى إلى أن يقل حفاظه والقائمون به والمقرئون له"[2].

---

(١) البحث، ص ٢١.

(٢) دلائل الإعجاز ص٨- ٩ تحقيق محمود شاكر الطبعة الثامنة ١٤١٣ هـ-١٩٩٢م.

وهكذا جلي الإمام عبد القاهر خطورة ذم الشعر وهجره ، وبينّ علاقة الشعر بقضية الإعجاز في القرآن الكريم .

وإيمانا مني بأهمية الشعر وقيمته وبأهمية الدراسات التطبيقية للبلاغة العربية أقدمت على تحليل إحدى روائع شعر الخنساء وهي قصيدة "يذكرني طلوع الشمس صخرا" تحليلا بلاغيا نقديا .

والخنساء من أعظم شعراء العرب ، فقد اتفق أهل العلم بالشعر على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، فقد سطرت اسمها بين فحول الشعراء ، ولمع اسمها في الأسواق الأدبية وقُدِّمت على كثير من الشعراء .

وقد حاولت – قدر جهدي – أن أتمثل منهج الإمام عبد القاهر في التحليل الذي أشار إلى خطورة دراسة البيت الشعري معزولا عن سياقه بقوله : " ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب فيظهر فيها ذل الاغتراب .

والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين ، وأملأ بالزين منها إذا أفردت عن النظائر وبدت فذة للناظر"[1] . ومن ثم وقع اختياري على قصيدة كاملة هي من أروع قصائد الخنساء . والقصيدة تقع في خمسة عشر بيتا، تبدأ بقول الخنساء :

يؤرقني التذكر حين أمسي ∴ فأصبح قد بليت بفرط نكس

وتتوسط بقولها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا ∴ وأذكره لكل غروب شمس

---

(١) أسرار البلاغة ، ص٢٠٦ تحقيق محمود شاكر – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩١م .

وتختتم بقولها :

فيالهفـــي عليـه ولهـف أمـي ∴ أيصبح في الضريح وفيـه يمسـي؟

وقد حاولت أن أضم كل بيت إلى نظيره في ديوان الخنســاء، وهي محاولة لتفسير شعرها بشعرها، وأن أربط كلا بســياقه حتــى تكون الفائدة أتم وأعم .

والنص الذي اعتمدت عليه هو نص ديوان الخنســاء تقــديم وشرح وتعليق الدكتور/ محمد حمود – طبعــة دار الفكــر اللبنانيــة بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

وجاء هذا البحث تحت عنوان : قصيدة الخنساء (يذكرني طلوع الشمس صخرا) دراسة بلاغية تحليلية.

ولما كان البحث يتجه إلى الجانب التطبيقي فإنني لم أتعرض كثيرا لذكر المصطلحات البلاغية وتقسيماتها وآراء العلمــاء فيهــا .

وقد قام البحث على عدة محاور:

المحور الأول : التعريف بالخنساء، ويتضمن النقاط الآتية :

أ- نسب الخنساء .

ب- الخنساء شاعرة .

ج- منزلتها بين الشعراء .

د- الخنساء ناقدة

المحور الثاني : شعر الخنساء في شواهد البلاغيين .

المحور الثالث : بين يدي النص

المحور الرابع : تحليل القصيدة

المحور الخامس : تعقيب وخاتمة .

وأخيرا : الفهارس .

وبعد؛ فإن هذه المحاولة هي محاولة متواضعة للغاية، وهي خطوة نحو طريق منهج الإمام عبد القاهر في مجال الدراسات البلاغية التطبيقية من خلال نظرية النظم .

وحسبي أنني اجتهدت وأخلصت . وبالله التوفيق .

المحور الأول

التعريف بالخنساء
(تماضر بنت عمرو)

نسب الخنساء

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف ابن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر[1].

وروى : تماضر بنت عمرو بن الشريد[2] بإسقاط (الحارث) .

والخنساء لقب وقع عليها، وكنيتها ((أم عمرو)).

ورد اسمها ولقبها وكنيتها في شعر العرب، فمن ذلك قول دُريد بن الصِّمَّة، وقد تقدم لخطبتها فردته :

حيوا تماضر واربعوا صحبي ∴ وقفوا فإن وقوفكم حسبي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ∴ وأصابه تبل من الحب

وقال أخوها صخر ذاكراً كنيتها :

أرى أمَّ عمرو لا تملُّ عيادتي ∴ ومَلَّت سُليمى مضجعي ومكاني[3]

وسليمى هنا هي زوجته.

ولما تقدم الشاعر دريد بن الصمة لخطبتها ردته قائلة :

معاذ الله ينكحني حَبَركي ∴ قصير الشبر من جُشم بن بكر
يرى مجداً ومكرمةً أتاها ∴ إذا عشى الصديق جريم تمر
ولو أصبحت في جشم هديا ∴ إذا أصبحت في دنس وفقر[4]

---

(١) الأغاني جـ١٥، صـ٦١ تحقيق عبد الستار ـ أحمد فراج ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ طبعة عام ١٩٨٣، طبقات فحول الشعراء ج١ ص٢٠٣طبعة ٢٠٠٣م / تحقيق محمود شاكر.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٢١٣، تحقيق د. مفيد قميحة، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، خزانة الأدب للبغدادي صـ٢٠٨، دار صادر بيروت.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ديوان الخنساء صـ٦٢/٦٣، المكتبة الثقافية بيروت، صـ٧٥ طبعة دار الفكر (حبركي : طويل الظهر قصير الرجلين) .

وتزوجت الخنساء برواحة بن عبد العزيز السلمي، فولدت له : عبد الله ويكنى : أبا شجرة.

ثم تزوجت بغيره وهو : مرداس بن أبي عامر فولدت له يزيد ومعاوية وعمراً وبنتاً اسمها عمرة[1] .

عاشت في الجاهلية وصدر الإسلام، واعتنقت الإسلام حيث قدمت على رسول الله - ﷺ - مع قومها بني سُليم فأسلمت معهم.

وروي أن الرسول - ﷺ - استنشدها وأعجب بشعرها، وهو يقول لها: هيه يا خُناس (أي خنساء) ويومي بيده[2].

ولما قدم عُدي بن حاتم على رسول الله - ﷺ - وحادثه فقال : يا رسول الله : إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس، قال : سمهم : قال : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد الطائي، وأما أفرس الناس فعمر بن معد يكرب . فقال الرسول - ﷺ - ليس كما قلت يا عدي . إن أشعر الناس الخنساء بنت عمرو، أما أسخى الناس فمحمد يعني نفسه، وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب[3].

وشهدت الخنساء معركة القادسية، وقد سطر التاريخ ذكرها، وسجل مواقفها الشجاعة النبيلة التي تنبئ عن قوة إيمانها وقوة شخصيتها، فى صلابة وعزيمة في الأمر، حيث جاءت ببنيها الأربعة، فقالت لهم : يا بني أنتم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنوا رجل واحد، كما أنكم بنوا امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت

(١) الشعر والشعراء، صـ٢١٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر صـ٨ صـ ٣٤.
(٣) خزانة الأدب ط صـ٢٠٨/ ٢٠٩، ديوان الخنساء صـ٦.

نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية..،

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) فإذا أصبحتم غداً - إن شاء الله سالمين - فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظىً على سياقها وحللت ناراً على أوراقها فتيمموا وطيسها واجلدوا رسيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة .

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها . فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، فتقدموا واحداً بعد واحد، ينشدون الأراجيز فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً - فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته (٢).

مما سبق يتضح لنا قوة إيمانها، وشدة عزيمتها، وتضحيتها النادرة، فالإنسان قد يضحي بكل ما يملك من أموال، ولكنه يتردد أو يقف عند التضحية بأعز ما يملك من فلذات الأكباد، وهذا صنيع الأنبياء مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، عندما همَّ بذبح ابنه إسماعيل تنفيذاً لأمر الله عز وجل .

ومن ثم علت الخنساء ــ بصنيعها هذا ــ فوق الرجال حتى نال أولادها الشهادة . وسطرت اسمها في سجل الخالدين .

ولئن علت الخنساء فوق الرجال بقوة عقيدتها وشدة إيمانها ووفائها لدينها، فهذا الوفاء قد تغلغل في وجدانها منذ صباها، فقد

---

(١) آل عمران : آية ٢٠٠.
(٢) خزانة الأدب للبغدادي صـ٢١٠

كانت تتمتع بشخصية قوية واستقلالية في الرأي حتى لو خالف هـذا الرأي رأي أبيها.

وذلك واضح عندما تقدم لها دريد بن الصمة يخطبها، وهي تعلم أن أباها كانت له رغبة قوية فيه، ولكنها فضلت عليه ابـن عمهـا: رواحة بن عبد العُزى السُلمي وتزوجته، وقالت : " أتراني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح ، ومرتثة شيخ بني جُشم[1] وسطرت فـي ذلك شعراً إذ قالت :

معاذ الله ينكحنـي حَبَركي ∴ قصير الشبر من جُشم بن بكر
ولو أصبحت في جشـم هديا ∴ إذًا أصبحت في دنس وفقر[1]

إذًا كانت الخنساء منذ صباها تتمتع بشخصية متميزة تبرز فيها القوة واستقلال الرأي، والوفاء لأهلها وقبيلتها.

وفاتها :

توفيت الخنساء في أول خلافة عثمان بن عفان سنة أربـع وعشرين من الهجرة الموافق لسنة ست وأربعين وستمائة للمـيلاد. وقيل : سنة خمس وأربعين وستمائة من الميلاد[2] .

---

(١) ديوان الخنساء صـ٦٢/٦٣، طبعة المكتبة الثقافية ، بيروت، صـ ٧٥ طبعة دار الفكر اللبناني.

(٢) الأعلام للزركلي ٢/ ٨٦ مقدمة ديوان الخنساء صـ٩، المكتبة الثقافية بيروت – مقدمة ديوان الخنساء – طبعة دار الفكر اللبنانى ص٢٣/٢٤- الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء صـ٦٨.

الخنساء شاعرة

بدأت الخنساء كغيرها من الشعراء تقول البيت والبيتين وهي بداية طبعية، فالموهبة تبدأ صغيرة ثم تنمو حتى تكتمل، والذي ساعد على اكتمال هذه الموهبة، وفجر طاقات الشعر عندها، هو ما حدث لها من أزمات متعددة في حياتها، مما جعلها حزينة أبداً، كما سنعرض بعد قليل .

فقد قتل والدها وأخواها صخر ومعاوية، واستشهد أولادها الأربعة بعد ذلك، ومن ثم كان معظم شعرها في الرثاء، وأجادت فيه . ولما لا، والأسباب قد اجتمعت لها من قَتل أعز ما تملك حسباً ونسباً ووجاهة وقوة وكرماً ومكانة في القوم، ومن ثم اختلط رثاؤها بكثير من مدح هؤلاء وامتلأ شعرها بصفاتهم وفضائلهم.

((ومن أحسن المراثي ما خلط فيه مدح بتفجع على المرثي، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة، ونظام غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين، وكذلك رثاء الخنساء))[1].

إذا كانت تقول الشعر وقلبها يحترق لم يهدأ أبداً، ومن ثم كان صادقاً معبراً، لأنه خرج من قلب حزين وعاطفة صادقة، لأنها تحكي واقعاً ملموساً من كرم وشهامة وعزة نفس وقوة دافعت عن شرف القبيلة فأعزت أهلها ورفعتهم بهذه الفضائل وتلك الخصال. إذا لم تجامل أحداً في رثائها فهو رثاء خرج من قلب شديد الحزن.

ومما يؤيد ذلك عندما دخلت الخنساء على السيدة عائشة رضي الله عنها وعليها صدار من شَعر، فقالت : يا خنساء أتلبسين الصدار وقد نهى عنه رسول الله - ﷺ ؟ فقالت : لم أعلم بنهي الرسول - ﷺ- . وإنما لهذا الصدار حديثاً، وهو : أن أبي زوجني سيداً من

---

(١) زهر الآداب جـ٢ صـ٩٢٨ تحقيق على محمد البجاوي - دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٦٩.

سادات قومي متلافاً معطاءً فأنفذ ماله وأملق، وأراد أن يسافر فقلت له: أقم حتى آتي صخراً فأتيته، فقاسمناه ماله وأعطانا خير النصفين.

فأقبل زوجي يعطي ويهب حتى أنفذه، فكنت أعود إلى صخر ثانية وثالثة ورابعة وكان كذلك يعطيني خير النصفين. فقالت له زوجته : إن هذا المال مُتلف فامنحها شرار مالك، فقال :

والله لا أمنحها شرارها ∴ وهي حصان قد كفتني عارها
لو هلكتْ خرقتْ خمارها ∴ واتخذت من شعرها صدارها

فذلك الذي دعاني إلى لبس الصدار[1].

إذًا هي قد لبست الصدار حزناً ووفاء لأخيها صخراً، وقد لازمها هذا الحزن طيلة حياتها، وقد استطاع سيدنا عمر بن الخطاب الوقوف على هذه الحالة النفسية الحزينة من خلال شعرها.

فعندما أقبلت الخنساء حاجة فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها أتوا سيدنا عمر ابن الخطاب فقالوا : هذه خنساء فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والإسلام، فقام عمر وأتاها وقال يا خنساء، فرفعت رأسها، فقالت : ماذا تشاء وما الذي تريد؟ فقال ما الذي أقرح مآقي عينيك ؟ قالت : البكاء على السادات من مضر، قال : إنهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاء اللهب. قالت : فذاك أبي وأمي فذلك الذي زادني وجعاً ثم أنشدته بعض الأبيات في الرثاء، فقال سيدنا عمر : دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً.

وفي رواية أخرى : فقال لها عمر : اتق الله وأيقني بالموت، قالت : أبكي أبى وخير بني مضر صخراً ومعاوية، وإني لموقنة بالموت . قال : أتبكي عليهم وقد صاروا جمرة في النار؟ قالت : ذلك أشد لبكائي عليهم، فرقَّ لها عمر وقال : خلوا عن عجوزكم لا أبالكم فكل امرئ يبكي شجوه ونام الخلى عن بكاء الشجى[2].

---

(١) خزانة الأدب جـ١ صـ٢٠٩، الشعر والشعراء صـ٢١٤، ٢١٥.
(٢) زهر الآداب ج٤ صـ١٠٠٠، ديوان الخنساء صـ٦، ٧.

مما سبق يتضح لنا العامل النفسي عند الخنساء ويكشف عن العاطفة الحزينة والقلب الملتاع ، ومن ثم كان لرثاء الخنساء خصوصية تكاد تنفرد بها، لأن شعرها يخرج من قلب منفطر متوقد دائم البكاء صادق العاطفة . ((والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهم جزعاً على هالك ــ لما ركب الله عز وجل ــ في طبيعتهن من الخور وضعف العزيمة)) (١).

وبالطبع تكون المرأة أشد جزعاً على أهلها . ويفصح شعرها عن ذلك إذ تقول :

سأبكيهما والله ما حنّ والــه ∴ وما أثبت الله الجبال الرواسيا (٢)

ويرى الدكتور شوقي ضيف ((إن أشهر من بكت واستبكت في الجاهلية الخنساء، إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته فعقدت عليه مأتماً ضخماً من النواح، وأثار ذلك أخاها صخراً فثأر له، ولكنه جرح جرحاً بليغاً أدى إلى وفاته فعادت إلى نواحها بأشد مما صنعت على أخيها معاوية وكأنما سعر صخر قلبها وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبوا ولا تهدأ))(٣).

ومما يؤكد القول السابق بأن الخنساء أشهر من بكت واستبكت في الجاهلية ما قاله ابن قتيبة في ذلك :

((وكانت الخنساء تقف بالموسم فتسوم هودجها بسومة، وتعاظم العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية بن عمرو وتنشدهم فتبكي الناس...

---

(١) العمدة جـ٢ ص٧٦، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) ديوان الخنساء، صـ ١٢٧.

(٣) الرثاء د. شوقي ضيف صـ١٤، الطبعة الثانية ١٩٥٥ دار المعارف القاهرة .

وكان أبوها يأخذ بيدي ابنيه صخر ومعاوية ويقول : أنا أبو خيري مضر فتعترف له العرب بذلك.

ثم قالت الخنساء : بعد ذلك كنت أبكي لصخر من القتل فأنا أبكي له اليوم من النار[1].

((وواقع الأمر أن الخنساء نشأت في بيئة كانت مدرسة في الشعر إبان العصر الجاهلي، فأخواها شاعران وزهير بن أبي سلمة (مدرسة شعرية) نشأ في قبيلة بني سليم وهي قبيلة الخنساء))[2].

ومع كل ما قيل عن شاعرية الخنساء فإن ديوانها يبقى شاهداً ودليلاً على شاعريتها وكفى بذلك دليلاً.

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٢١٥ .

(٢) الخنساء شاعرة الرثاء صـ٤٥، بتصرف د. محمد حماد ـ دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

منزلتها بين الشعراء

لقد حظيت الخنساء بمكانة مرموقة، ومنزلة سامية بين فحول الشعراء حيث لم يذكر الرثاء إلا وذكر معه الخنساء، وكذلك لم تذكر النساء الشاعرات إلا وذكرت على رأسهن الخنساء.

وقد جعلها ابن سلام في كتابه "طبقات فحول الشعراء" في المرتبة الثانية مع فحول الشعراء من الرجال بالنسبة لشعراء المراثي، بعد متمم بن نويرة [١].

ويقول صاحب خزانة الأدب : ((واتفق أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها))[٢].

وما بالنا بشاعرة شهد لها النابغة الذبياني وفضلها على كثير من الشعراء. ((وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته فقال لها : النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدني (آنفاً) لقلت أنك أشعر الجن والإنس)).

فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك، فقبض النابغة على يده ثم قال: يا بن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ∴ وإن خلتُ أن المنتأي عنك واسع

ثم قال للخنساء أنشديه فأنشدته . فقال : والله ما رأيت ذا مثانة أشعر منك، فقالت له الخنساء : لا والله ولا ذا خُصيين[٣].

تلك شهادة خبير بالشعر ونقده على مكانة الخنساء ومنزلتها بين فحول الشعراء.

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ١ صـ٢٠٣ ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني بالقاهرة.

(٢) خزانة الأدب جـ١، صـ٢٠٨

(٣) الشعر والشعراء، صـ ٢١٣- ٢١٤.

وقيل لجرير من أشعر الناس؟ قال : أنا لولا الخنساء.

قيل بم فَضلَتك، قال بقولها :

إن الزمـــان وما تفنـــى عجائبه ∴ أبقـى لنـا ذنبـاً واستؤصـل الـراس
أبقى لنا كـــل مجهـــول وفجّعنا ∴ بالحـالمين فهـم هـامٌ وأرمـــــاس
إن الجديدَين في طـول اختلافهمـا ∴ لا يفسـدان ولكـن يفسـد النـاس[1]

وشهد لها بشار بن برد بقوله : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهـر الضعف فيه فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال تلك لها أربع خصـي، وفي رواية : تلك فوق الرجال[2].

((ووفد الأخطل على معاوية فقال : إني قد امتدحتك بأبيـات فاسمعها فقال : إن كنت شبهتني بالحية والأسد أو انصقر فلا حاجـة لي بها، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء :

فمـا بلـغ المهـدون للنـاس مدحـة ∴ وإن أطنبـوا إلا الـذي فيـك أفضـل
ومـا بلغـت كـف امـرئ متنـاولاً ∴ مـن المجـد إلا والـذي نلـت أطـول

فقل.فقال الأخطل:والله لقد أحسنت،وقد قلت فيك ما هما دونها ثم أنشد:

إذا مت مات العرف وانقطع النـدى ∴ فلـــم يبـق إلا مـن قليـل مصـرَّد
وردت أكـف السائليـن وأمسـكوا ∴ عن الدين والـدنيا بحـزن مجـدّد[3]

وجاء في زهر الآداب ــ أيضاً ــ " إن الخنساء أشـعر نسـاء العرب عند كثير من الرواة، وكان الأصمعي يقدم ليلى الأخيلية[4]، قال أبو زيد: ليلى أكثر تصرفاً وأغزر سحراً وأقـوى لفظـاً، والخنسـاء أذهب عموداً في الرثاء" [5].

---

(١) خزانة الأدب جـ١ صـ٢٠٩ـ والأبيات فـي ديـوان الخنسـاء صـ٦٩، ٧٠.

(٢) الكامل في اللغة والأدب جـ٢ صـ٣٢٧ مؤسسة المعارف بيروت

(٣) زهر الأداب جـ٤، صـ٩٢٣.

(٤) ليلى الأخيلية هي: ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرحالة بن معاوية بن عبادة بن عقل بن كعب بن ربيعـة بـن عـامر بـن صعصعة.

(٥) زهر الآداب جـ٤، صـ٩٢٣.

الخنساء ناقدة

في موقف النابغة المعروف في سوق عكاظ عندما فضل الخنساء على كثير من الشعراء وكان من بينهم حسان بن ثابت فأغضبه ذلك وقال للنابغة : أنا أشعر منك ومنها، وبعدها قال النابغة للخنساء : خاطبيه فالتفتت الخنساء إلى حسان فقالت له : ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفاً؟

قال حسان: قولي :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ∴ وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

فقالت الخنساء ناقدة قوله :

ضعّفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع في بيتك هذا، قال : وكيف؟، قالت :

قلت : ((لنا الجفنات)) والجفنات ما دون العشر، ولو قلت : الجفان، لكان أكثر.

وقلت : ((الغر)) والغرة بياض في الجبهة، ولو قلت : البيض لكان أكثر اتساعاً.

وقلت: ((يلمعن)) واللمع شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت: ((يشرقن)) لكان أكثر، لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت : ((بالضحى)) ولو قلت بالدجى لكان أكثر إطراقاً.

وقلت : ((أسياف)) والأسياف ما دون العشرة، ولو قلت : ((سيوف)) كان أكثر.

وقلت : ((يقطرن)) ولو قلت : ((يسلن)) كان أكثر.

وقلت : ((دماً)) والدماء أكثر من الدم . فسكت حسان ولم يحر جواباً[1].

مما سبق يتضح لنا كيف كانت الخنساء ناقدة بصيرة تعي الكلمات ومدلولاتها، وتضع كل حرف وكل كلمة في مكانها المناسب بين الكلام، حتى يطابق مقتضى الحال والمقام . ومن ثم كانت منزلة الخنساء قديما وحديثا لا تخفى على ذي بصر وبصيرة .

(1) الروائع – الخنساء – البستاني فؤاد ص ٤٧٢– ٤٧٣– نقلا عن– الخنساء شاعرة الرثاء – د. محمد حمود ص٦٢– مقدمة ديوان الخنساء ص٦ المكتبة الثقافية .

المحور الثاني

شعر الخنساء في شواهد البلاغيين

شعر الخنساء في شواهد البلاغيين

إن وجود شعر شاعر في شواهد البلاغيين أو النحويين لـدليل دامغ على قيمة هذا الشعر وقوته، حتى وإن كان وجوده قليلا بـين هذه الشواهد، وإن الخنساء واحدة من هؤلاء الشعراء الذين ضـمت الشواهد البلاغية شيئاً من أشعارهم ، وهاأنذا أ عرض ما وقعت عليه يدي في كتب البلاغيين قديمها وحديثها .

وأول ما نبدأ به ما جاء في كتابي : " دلائل الإعجاز وأسـرار البلاغة " للإمام عبد القاهر الجرجاني، وإذا وجد الشاهد نفسـه فـي كتب بلاغية أخرى سوف نشير إليه حتى تعم الفائدة.

تقول الخنساء :

إذا قـبح البكـاء علـى قتيـل .:. رأيـت بكـاءك الحسـن الجمـيلا[1]

جاء هذا البيت شاهداً على أن لام التعريف قد تأتي لمعنى غيـر القصر والحصر، ومن المعلوم أن إفادة المعرف بلام الجنس لمعنـى القصر هي الأصل، ولكنها هنا خرجت عن هذا الأصل فلا تفيد القصر.

يقول الإمام عبد القاهر معلقاً على هذا البيت :

((لم ترد أن ما عدا البكاء عليه فليس بحسن ولا جميل، ولـم تقيد الحسن بشيء فيتصور أن يقصر على البكاء، كما قصر الأعشى هبة المائة على الممدوح[2] ولكنها أرادت أن تقره في جنس ما حسنه الحسن الظاهر الذي لا ينكره أحد ولا يشك فيه شاك)) .

انتهى كلام الإمام عبد القاهر.

ولكن الإمام فخر الدين الرازي بعد أن ذكر كـلام الإمـام عبـد القاهر السابق أدلى بدلوه قائلاً : ((وأقول لو جعل ذلك مفيداً للحصر

([1]) البيت في الديوان صـ١٠٨. دلائل الإعجاز صـ١٨١، تحقيـق محمود محمد شاكر مطبعة المدني الطبعة الثالثة ١٤١٣- ١٩٩٢م.

([2]) في قوله: هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضا وإما عشارا

على وجه المبالغة لم يكن فيه خلل، هذا كله إذا كان لام التعريف في الخبر لإفادة الحقيقة))[1].

وقد ذكره ـ أيضاً ـ صاحب" الإيضاح " فقال : ((ثم التعريف بلام الجنس قد لا يفيد قصر المعَّرف على ما حكم عليه به كقول الخنساء ثم ذكر البيت السابق))[2].

وقد علق صاحب" بغية الإيضاح " على هذا البيت بقوله : ((وإنما لم يفد تعريف ـ الحسن ـ القصر لأن كلامها للرد على من يتوهم قبح البكاء على قتيلها كغيره، والرد عليه يكفي فيه إخراج البكاء على قتيلها من القبح إلى الحسن، وإنما يصح القصر إذا كان الكلام للرد على من يسلم حسن البكاء على قتيلها ولكنه يدعى أن بكاء غيره حسن ـ أيضاً ـ وهذا لا يلائمه أول البيت، وفائدة تعريف "الحسن" ـ ادعاء أنه معلوم لا ينكره أحد لأن ـ أل ـ الجنسية تفيد هذا))[3].

وقد ذكر أصحاب " شروح التلخيص " هذا البيت للشاهد نفسه[4] ومضمون كلامهم لا يختلف عما ذكرناه فلا داعي لذكر ما قالوه)).

<u>وثاني هذه الشواهد في " دلائل الإعجاز " قول الخنساء :</u>

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ∴ فإنما هي إقبال وإدبار[5]

---

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الرازي صـ ١٦١ تحقيق د.بكري شيخ أمين ـ دار العلم للملاين بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥م

(2) الإيضاح على البغية، جـ ١، صـ ٢٠٥ للشيخ عبد المتعال الصعيدي – مكتبة الآداب، القاهرة – مكتبة صبيح، الطبعة الثامنة.

(3) السابق نفسه .

(4) شروح التلخيص، جـ ٢، صـ ١٠٠، ١٠١.

(5) ديوان الخنساء، صـ ٥٧ .

ساقه الإمام عبد القاهر بقوله : ((ومما طريق المجاز فيه الحكم ثم قال معلقاً على البيت : ((وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناها، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار.

وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت ((الإقبال والإدبار)) لمعنى غير معناهما الذي وضعا له في اللغة. ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء))[1].

ويرفض الإمام عبد القاهر التقدير في بيت الخنساء : ((إنما هي ذات إقبال وإدبار على حذف المضاف. فيقول : ((لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذ نحن قلنا : ((فإنما هي ذات إقبال وإدبار)) أفسدنا الشعر على أنفسنا، وخرجنا إلى شيء مغسول وإلى كلام عامي مرذول))[2].

وهذا الكلام الذي ذكره الإمام عبد القاهر يرد به على من قدر الكلام في قول الخنساء ((أي ذات إقبال وإدبار)).

وقد ذكر ذلك ابن أبي الإصبع في باب التشبيه الصناعي وذلك في قوله : ((والتشبيه الصناعي على ضربين تشبيه بأداة وتشبيه بغير أداة وفائدته قرب المشبه من المشبه به ــ وأدوات التشبيه خمسة : الكاف وكأن وشبه ومثل والمصدر بتقدير الأداة

<u>وفي المصادر ما لا يمكن تقدير الأداة فيه كقول الشاعر :</u>

((فإنما هي إقبال وإدبار، أي ذات إقبال وإدبار))[3]

---

(1) دلائل الإعجاز صـ٣٠٠، ٣٠١.

(2) السابق صـ٣٠٢

(3) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري صـ١٦١، تحقيق د.حنفي شرف ــ لجنة إحياء التراث الإسلامي ــ بدون.

والقول ما قاله الإمام عبد القاهر صاحب الذوق الرفيع.

وأما الطيبي في كتابه " التبيان " فقد ذكره شاهداً على قوله : ((وأما المصدر الذي وقع صفة أو خبرا فيجعل نفس الموصوف أو المخبر عنه مبالغة قالت الخنساء وذكر البيت السابق. جعلت الناقة نفس الإقبال والإدبار لكثرة ترددها تأسفاً))[1].

وفي كتاب" أسرار البلاغة " جاء قول الخنساء :

إذا القوم مدوا بأيديهم ∴ إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم ∴ من المجد ثم مضى مصعداً

قدم لهما الإمام عبد القاهر بقوله: ومما يبين موضوع بيت الشماخ إذا اعتبرت به قول الخنساء وذكر البيتين السابقين .

– ومما تجدر الإشارة إليه أن بيت الشماخ الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر هو :

إذا ما راية رفعت لمجد ∴ تلقاها عرابة باليمين

وقد جاء الإمام عبد القاهر ببيت الشماخ في سياق الكلام عن مجازية ((اليمين واليد)).

قال الإمام : ((فأما ما تكون ((اليد)) فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول : إنها بمعنى القدرة ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين فكقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[2] تراهم يطلقون اليمين)) بمعنى : القدرة ويصلون قول الشماخ : وذكر البيت السابق.

وكما فهمت من قول الإمام عبد القاهر فإنه لا يؤيد أن اليمين هنا بمعنى القدرة.

([1]) البيان في علم المعاني والبديع والتبيان للطيبي صـ٧٩، تحقيق د.هادي الهلالي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧ .

([2]) الزمر : آية ٦٧.

فقال : وهذا منهم تفسير على الجملة وقصد إلى نفي الجارحة بسرعة خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ــ ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التي منها يحصل على القدرة والقوة.

يقول الإمام عبد القاهر : وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل.

..... وهكذا شأن البيت (يعنى بيت الشماخ) إذا أحسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل، ولم تأخذ المعنى من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم : ((تقبلته بكلتا اليدين))... إلى أن وصل إلى قوله : ومما يبين موضوع بيت الشماخ إذا اعتبرت به قول الخنساء.

يقول الإمام عبد القاهر بعد بيتي الخنساء : إذا رجعت إلى نفسك لم تجد فرقاً بين أن يمد إلى المجد يداً، وبين أن يتلقى رايته باليمين وهذا ــ إن أردت الحق ــ أبين من أن تحتاج منه إلى فضل قول[1].

قالت الخنساء :

((**وإن صخراً لتأتم الهداة به ∴ كأنه علم في رأسه نار**))[2]

استشهد به الخطيب القزويني في" الإيضاح " على ((الإيغال))، وعرف الإيغال بقوله : ((هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء وذكر البيت السابق.

ثم علق عليه بقوله : ((لم ترض أن تشبه بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في رأسه ناراً))[3].

---

(1) أسرار البلاغة، صـ ٣٥٨ – ٣٦٢، تحقيق محمود شاكر .

(2) الديوان، صـ ٥٧.

(3) الإيضاح مع البغية جـ٢، صـ١٣٧.وينظر شرح التلخيص للشيخ أكمل البابرتي صـ٤٤٧، تحقيق د.محمد صوفية ــ طرابلس الطبعة الأولى ١٣٩٢ــ ١٩٨٣ ــ وينظر التبيان للطيبي صـ٣٧٦

ولا يخفى أن محل الشاهد هو قولها : ((في رأسه نـــار)) لأن قولها : " كأنه علم واف بالغرض المقصود فزادت هذا القول لزيـــادة المبالغة في التشبيه.

وقد أعجب صاحب" تحرير التحبير" بهذا البيت أيما إعجاب بعـد أن ذكره شاهداً على الإيغال فقال : ((وأعظم ما وقع في هذا البـاب قول الخنساء وذكر البيت... ثم قال : وعندي أن هذا البيت لو أفـرد بالتمثيل في هذا الباب لأغنى عما ساقه قدامة بن جعفـر فـي بـاب ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيـت مـن بـابي "التوشـيح والإيغال" لأن صدره يدل على عجزه دلالة التوشيح ومعنـى جملـة البيت كامل دون قافيته، وفيه بوجودها زيادة لم تكن لها قبلها، فـإن هذه المرأة لم ترض لأخيها بأن تأتم به عليه الناس حتى جعلته علماً يأتم به أئمة الناس، وهذا تتميم أدمج في صدر لفظ " التوشيح " ولم ترض تشبيهه بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف بالهدايـة حتـى جعلت في رأسه ناراً))[1] .

وعلق أبو هلال العسكري على هذا البيت قائلا : فقولها : فـي رأسه نار " تتميم عجيب .

قالوا لم يستوف أحد هذا المعنى استيفاؤها وهو مأخوذ من قول الأعشى :

وتدفن منه الصالحات وإن يسى ∴ يكن ما أساء النار في رأسه كبكبا[2]

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى ، فشهر واستفاض، وخمل معها بيت الأعشى ورزل.[3]

---

(1) تحرير التحبير صـ٢٣٤

(2) بيت الأعشى في ديوانه، صـ ٨، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(3) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، صـ ٤٠٦، تحقيق علـي البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار الفكر .

قالت الخنساء :

ولـولا كثـرة البـاكين حولـي ∴ علـى إخـوانهم لقتلـت نفسـي[1]
ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن ∴ أعـزي الـنفس عنـه بالتأسـى

ذكر صاحب" تحبير التحبير" البيتين شاهداً على " الاحتراس "

قال : ومن أمثال هذا الباب – بعـد أن تحـدث عـن الإيغـال والتكميل– قول الخنساء :

ولـولا كثـرة البـاكين حولـي ∴ علـى إخـوانهم لقتلـت نفسـي

ثم تخيلت أن قائلاً قال لها : لقد ساويت أخاك بالهـالكين مـن إخوان الناس، فكيف أفرطت في الجزع عليهم دونهم؟ فاحترست من ذلك بقولها :

ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن ∴ أعـزي الـنفس عنـه بالتأسـي

وذكرهما بدر الدين بن مالك في كتابه " المصباح " شاهداً علـى الاحتراس – أيضاً– فذكر البيت الأول ثم قال : ففطنت لتوجه أن يقال لها : قد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس، فلم فرطـت فـي الجزع عليه ؟ فاحترست بقولها، وما يبكون مثل أخي ولكـن ...[2]

تقول الخنساء :

يـذكرني طلـوع الشـمس صـخراً ∴ وأنكـره لكـل غـروب شمـس[3]

ساق ابن أبي الإصبع هذا البيت شاهداً على "غريب التنكيـت"، وعرف" التنكيت "بأن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود تـرجح اختصاصـه بالذكر دون ما يسد مسده، ولولا تلك النكتة التي انفـرد بهـا لكـان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد. " ثم ذكر قائلاً:

---

(1) الديوان، صـ ٨٢.

(2) المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك ص٢٢٥ – دار الكتب العلمية بيروت .

(3) الديوان، صـ ٨٢.

ومن غريب التنكيت قوله تعالى﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء ﴾[1].

ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول الخنساء:

يـذكرني طلـوع الشـمس صـخراً ∴ وأذكـره لكـل غـروب شمـس

فخصت هذين الوقتين وإن كانت تذكره في كل وقت، لمـا فـي هذين الوقتين من النكتة المتضمنة تأبين الميت، والمبالغة في وصفه بالشجاعة والكلام لأن طلوع الشمس وقت الغـارات علـى العـدى، ووقت غروبها: وقت وقود النيران للقرى[2]

قالت الخنساء :

طويـل النجـاد رفيـع العمـا ∴ د سـاد عشـيرته أمـرداً[3]

ذكره الطيبى في باب الكناية والرمز، فقال معلقاً على البيـت : عنت بطول نجاده طول قامته وبارتفاع عماده سـيادته. وبقولهـا : ..... ساد عشيرته أمرداً . استحقاقه لهـا بالوراقـة أو لـم يـزل ماجداً[4].

وقد ساق جمهور البلاغين الشطر الأول من البيت طويل النجاد، رفيع العماد ــ شاهداً على الكناية ولكن دون نسبته إلى قائله[5] .

قالت الخنساء :

ومـا بلغـت كـف امـرئ متنـاولاً ∴ مـن المجـد إلا والـذي نلـت أطـول
ومـا بلـغ المهـدون للنـاس مدحـة ∴ وإن أطنبـوا إلا الـذي فيـك أفضـل

ذكره ابن أبي الإصبع في كتابه "تحرير التحبير" تحـت: " بـاب السلب والإيجاب " وعرفه قائلاً :

---

(1) النور : ٤٥ .
(2) تحرير التحبير، صـ ٤٩٤- ٥٠٠.
(3) الديوان صـ٤٤، وكرر الشطر الأول صـ١٠٧.
(4) تحرير التحبير ص٢٤٨
(5) دلائل الإعجاز، صـ ٧٠- ١٦٢. المطول، صـ ٤٠٧- شـروح التلخيص، جـ ٣، صـ ٢٣٨ وما بعدها .

وهو أن يقصد المادح أن يفرد ممدوحه بصفة مدح لا يشركه فيها غيره، فينفيها في أول كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك كقول الخنساء في أخيها: ثم ذكر البيتين السابقين[1].

وقد جاء البيتان برواية أخرى في الديوان :

فما بلغت كف امرئ متناول ∴ من المجد إلا حيث ما نلت أطول[1]

ولا بلغ المهدون في القول مدحة ∴ ولا صدقوا إلا الذي فيك أفضل

وقد أعجب معاوية بهذين البيتين أيما إعجاب ، وذلك عندما وفد عليه الأخطل فقال له : إني قد امتدحتك بأبيات فاسمعها فقال معاوية : إن كنت قد شبهتني بالحية أو الأسد أو الصقر فلا حاجة لي بها . وإن كنت قلت كما قالت الخنساء وذكر البيتين ...

فقل: فقال الأخطل: والله لقد أحسنت، وقد قلت فيك ما هما بدونهما[2].

قالت الخنساء :

وقائلة والنعش قد فات خطوها ∴ لتدركه يا لهف نفسي على صخر[3]

ألا ثكلت أم الذين غدوا به ∴ إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر؟

ساقه الطيبي في " التبيان " شاهداً على " السلخ " وعرف السلخ بقوله : وهو أن يؤتى بالمأخوذ مع التغيير في معناه أو لفظه، أما المعنى فالمقبول منه ما يكون الفرع أحسن من الأصل وهو على وجوه :

أ- ما يزاد فيه معنى.

---

(1) الديوان، صـ ١٠٠.

(2) زهر الآداب، جـ ٤، صـ ٩٢٣.

(3) الديوان، صـ ٦٠- ورواية البيت الثاني : ألا ثكلت أم الذين مشوا به .

ب- ما يكون الفرع أبلغ.

ج- أن يراعى فيه من المعنى البديع شيء.

وأبيات الخنساء جاءت تحت الوجه الثالث وهو أن يراعي فيه من المعنى البديع شيء وذكر بيتي الخنساء ولكن دون تعليق عليها[1] .

قالت الخنساء :

جاري أباه فأقبلا وهما ∴ يتعاوران ملاءة الخُضر[2]

وهما وقد برزا كأنهما ∴ صقران قد حطا إلى وكر

حتى إذا نزت القلوب وقد ∴ نُزّت هناك الغدر بالعذر

وعلا هتاف الناس أيهما ∴ قال المجيب هناك لا أدري

برقت صفيحة وجه والده ∴ ومضى على غلوائه يجري

أولى فأول أن يساويه ∴ لولا جلال السن والكبر

ذكر ابن أبي الإصبع في كتابه " تحرير التحبير" هذه الأبيات تحت باب : جمع المختلفة والمؤتلفة.

وعرفها بقوله : " إنها عبارة عن أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فصل لا ينقص لها مدح الآخر فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف معاني التسوية كقول الخنساء في أخيها، وقد أرادت مساواته بأبيها ، مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها حق الولد، وذكر الأبيات السابقة.

وقال ابن أبي الإصبع : ((وأول من فتح باب هذا المعنى فيما أظن زهير .... لكن لشعر الخنساء من الفضل في هذا المعنى ما

---

(1) التبيان للطيبي، صـ ٤٤٣- ٤٤٤.

(2) الديوان، صـ ٧٥.

ليس لغيره، وتداول الناس هذا المعنى بعدها وابتذله الشعراء فكان أول تابع من المولدين أبو نواس ...[1]

تقول الخنساء:

فما عجول لدى بو تطيف به ∴ لها حنينان إعلان وإسرار
أودى به الدهر يوماً فهي مرزمة ∴ قد ساعدتها على التحنان أظآر
ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت ∴ فإنما هي إقبال وإدبار
يوماً بأوجد مني يوم فارقني ∴ صخر وللعيش إحلال وإمرار[2]

يستشهد بهذه الصورة الشعرية الدكتور/ محمد أبو موسى في كتابه"التصويرالبياني" على التشبيه الضمني الذي تدل عليه العبارة دلالة ضمنية والذي تتلاحق فيه الأوصاف حتى تكون صورة مكتملة، وأن هذه الصياغة أخذت شكلاً محدداً في الصياغة الشعرية.

بدأت بقولها " فما عجول " وذكرت قصة العجول التي تراها ثم بعد ما فرغت من حكايتها الأليمة قالت: ((بأوجد مني يوم فارقني" وهذا كما قلنا تشبيه ضمني لأنه يتضمن تشبيه حالها بهذه الناقة الوالهة على ولدها))[3].

وهناك بعض الشواهد البلاغية منسوبة للخنساء ولم أعثر عليها في ديوانها مثل :

إن البكاء هو الشفاء ∴ من الجوا بين الجوانح[4]

---

(1) تحرير التحبير، صـ ٣٤٤- ٣٤٥

(2) الديوان، صـ ٧٥ .

(3) التصوير البياني للدكتور/ محمد ابو موسى، صـ ٩٢، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م – وينظر خصائص التراكيب، صـ ٨٦ للدكتور محمد أبو موسى، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(4) الإيضاح على البغية، جـ ٤، صـ ٨٢.

استشهد به البلاغيون على "الجناس" بين كلمة "الجـوا" وبـين كلمة "الجوانح" .

وأيضا :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـ ∴ دى الطريقـة نفـاع وضـرار[1]

استشهد به صاحب "الإيضاح" وأصحاب "الشروح" على وجـود السجع في الشعر.

(1) السابق، جـ ٤، صـ ٩٧- شروح التلخيص، جـ ٤، صـ٤٥٢-٤٥٣- التبيان للطيبي، صـ ٥٠٤-٥٠٥.

المحور الثالث

بين يدي النص

(١) يـؤرقني التـذكر حـين أمسـي ... فأصـبح قـد بليـت بفـرط نكـس

(٢) على صـخر ، وأي فتـى كصـخر ... ليـوم كريهـة وطعـان حلـس

(٣) وللخصـم الألـد إذا تعـدى ... ليأخـذ حـق مظلـوم بقـنس

(٤) فلـم أر مثلـه رزءا لجـن ... ولم أر مثلـه رزءا لإنـس

(٥) أشد على صـروف الـدهر أيـدا ... وأفصـل في الخطـوب بغـير لـبس

(٦) وضـيف طـارق أو مسـتجير ... يـروع قلبـه مـن كـل جـرس

(٧) فأكرمـه وآمنـه فأمسـى ... خليـا بالـه مـن كـل بـؤس

(٨) يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكـره لكـل غـروب شمـس

(٩) ولـولا كثـرة الباكين حـولي ... علـى إخـوانهم لقتلـت نفسـي

(١٠) ولكـن لا أزال أرى عجـولا ... وباكيـة تنـوح ليـوم نحـس

(١١) أراهـا والهـا تبكـي أخاهـا ... عشـية رزئـه أو غـب أمـس

(١٢) ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن ... أعـزي الـنفس عنـه بالتأسـي

(١٣) فـلا والله لا أنسـاك حتـى ... أفـارق مهجـتي ويشـق رمسـي

(١٤) فقد ودعـت يـوم فـراق صخر ... أبـي حسـان لـذاتي وأنسـي

(١٥) فيا لهفي عليـه ولهـف أمـي ... أيصبح في الضريح وفيـه يمسـي ؟ [1]

---

(1) القصيدة في ديوان الخنساء، صـ ٨١- ٨٢، طبعـة دار الفكـر اللبناني، صـ ٦٧- ٦٨ طبعة المكتبة الثقافية، بيروت .

بين يدي النص

مناسبة النص :

قالت الخنساء هذه القصيدة ترثي بها أخاها صخرا، وهي من جملة قصائد عديدة امتلأ بها ديوان الخنساء كما امتلأ قلبها بحب صخر .

وقلما نجد امرأة في التاريخ رثت أخاها وحزنت عليه هذا الحزن الشديد مثل الخنساء، وقد فعلت ذلك برا ووفاء لأخيها .

وكان صخر بارا بالخنساء أبلغ ما يكون البر، ولا أدل على ذلك عندما ذهبت إليه أكثر من مرة تطلب منه مالا بعد أن أتلف زوجها كل ما يملك – وفي كل مرة كان يعطيها نصف ماله فتعود وقد جبر كسرها ؛ حتى ضاقت زوجة صخر من هذا الصنيع ، وقالت له: إن هذا المال متلف فامنحها شرار مالك ، ولكنه رفض ذلك وأنشد قائلا :

والله لا أمنحها شرارها ... وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت خرقت خمارها ... واتخذت من شعرها صدارها

من أجل ذلك جعلت الخنساء كلام صخر بمثابة الوصية الواجبة تنفيذها فاتخذت من شَعرِها صدارا لها .

وقد دخلت على السيدة عائشة – رضي الله عنها – وهي كذلك، فقالت لها : أتلبسين الصدار وقد نهى عنه رسول الله – ﷺ –؟ فقالت الخنساء : لم أعلم بنهيه ، وإنما لهذا الصدار حديثا وحكت لها ما قاله صخر .

فقالت السيدة عائشة لها : ماالذي بلغ بك ما أرى . قالت : موت أخي صخر. قالت السيدة عائشة لها: ما بلغ من بره بك واستحق هذا منك؟ فقصت الخنساء لها صنيع صخر من كرم ووفاء وحب .

فقالت لها : إن الإسلام قد هدم الذي تصنعين ، فأنشأت تقول :

يذكرني طلوع الشمس صخرا ∴ وأذكره لكل غروب شمس

فقالت السيدة عائشة : ما دعاك إلى هذا إلا صنائع فيه جميلة .

إذًا كان حزن الخنساء الشديد له ما يبرره ،والقصة مشهورة في كتب الأدب بروايات متعددة [1] فضلا عن عطائه وكرمه لها ومنزلته بين الرجال من قوة وشهامة ومهابة فقد كان حامي ذمار القبيلة ، وبالجملة كان كل حياتها .

وأكبر من ذلك كله هو أن الخنساء تشعر بأن صخرا سيصنع صنيعها لو أنها ماتت قبله ، ونطق بذلك شعرها فقالت :

ومالي لا أبكي على من لو أنه ∴ تقدم يومي قبله لبكى ليا [2]

وهذا الشعور في رأي أكبر وأقوى من كل الأسباب ، فصخر كان يشعر بأنه لو هلك لخرقت الخنساء خمارها واتخذت من شعرها صدارا لها ، وقد فعلت الخنساء ذلك .

وهي – أيضا– تشعر بأنها لو ماتت قبله لبكى عليها بكاء شديدا كما بكت هي عليه .

إنه قمة الوفاء والإخلاص .

مقتل صخر في يوم (ذات الأثل)

كان طبعيا أن أشير إلى مقتل صخر ، فمن المعلوم أن صخرا قتل بعد أن أخذ بثأر أخيه معاوية .

يقول ابن عبد ربه في" العقد الفريد" ..

" غزا صخر بن عمربن الشريد بني أسد بن خزيمة ، واكتسح إبلهم فأتى الصريخ بني أسد فركبوا حتى تلاحقوا (بذات الأثل)

---

(1) خزانة الأدب للبغدادي، جـ ١، صـ ٢٠٨– الشعر والشعراء، جـ ١، صـ ٢٦٣– العقد الفريد، صـ ٢١١– الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، جـ ٨، صـ ٦٨– مقدمة ديوان الخنساء، صـ ١٨– ١٩، طبعة دار الفكر، بيروت .

(2) الديوان، صـ ١٢٣– العقد الفريد، جـ ٦، صـ ٣٠.

فاقتتلوا قتالا شديدا ، فطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخرا في جنبة ، وفاز القوم بالغنيمة ، وجرى صخر من الطعنة فكان مريضا قريبا من الحول .

فلما طال عليه البلاء،وقد نتأت قطعة من جنبه في موضع الطعنة قالوا له:لو قطعتها لرجونا أن تبرأ قال:شأنكم فقطعوها فمات[1] .

وبموت صخر - كما نعلم- قامت ثائرتها ، وتوجعت عليه وجعا شديدا ، فقد كان حليما جوادا محبوبا في عشيرته وفيا مخلصا لأهله .

وبمقتل صخر ومن قبله معاوية وموت أبيها وكذلك استشهاد أولادها الأربعة تجمعت لدى الخنساء أسباب الحزن وما وصلت إليه من شدة ولَه وقمة انهيار ويأس ، نطق بكل ذلك شعرها .

إذًا فقد احترق قلب الخنساء بعد موت صخر، ولذلك قيل للخنساء صفي لنا أخويك صخرا ومعاوية فقالت : كان صخر والله جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر ، وكان والله معاوية القائل والفاعل .

وقيل لها : فأيهما كان أسنى وأفخر ، قالت : أما صخر فحر الشتاء ، وأما معاوية فبرد الهواء .

قيل لها : فأيهما أوجع وأفجع ؟ قالت : أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد.

وأنشدت تقول :

أسدان محمرا المخالب نجدة	بحران في الزمن الغضوب الأنمر
قمران في النادي رفيعا محتد	في المجد فرعا سؤدد متخير[2]

(١) الأغاني، صـ ٦٩، والإصابة لابن حجر، جـ ٨، ص ٦٦- الشعر والشعراء، ص ٢١٤.

(٢) الديوان، صـ ٧٦-٧٧- العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ ٣، صـ ٢١١.

وأخير نختم بهذه الأبيات التي توضح منزلة صخر عندها وكيف كان حالها :

يا عين جودي بدمع غير منزور	مثل الجمان على الخدين محدور
وابكي أخا كان محمودا شمائله	مثل الهلال منيرا غير مغمور
وفارس الخيل وافته منيته	ففي فؤادي صدع غير مجبور
يا عين جودي بالدمع الغزار	وابكي على أروع حامي الذمار[1]

إذًا كان صخر محمود الشمائل منيرا مثل الهلال ، وكان أروع من يحمي الذمار،ومن ثم كان فؤادها مصدوعا غير مجبور، فليس غريبا أن تقول : أما صخر فجمر الكبد .

تلك كانت مناسبة النص .

- إطلالة على النص :

قبل أن ننتقل إلى تحليل القصيدة أود أن ألقى إطلالة سريعة نعيش فيها أجواء النص .

بدأت القصيدة بذكر تأريق الخنساء بسبب تذكرها لصخر وبخاصة عند المساء ، فقد أصبحت بذلك التأريق مبتلية بانتكاسة شديدة سببها لها فراق أخيها .

ثم تناولت صفات القوة والشجاعة التي تمتع بها صخر، وذكرت أدلة ذلك وهي كثرة طعناته الصائبة في الحرب فيأخذ صخر حقوقهم من هذا الخصم بعدل دون جور وظلم أو تهور .

ثم تحدثت الأبيات عن أن الخنساء لم تر مصيبة في عالم الإنس ولا في عالم الجن أعظم من مصيبتها في صخر، فهو أشد قوة وبأسا على نوائب الدهر ، وأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب حتى صار أفضل الناس في الحكم بين الناس دون لبس .

---

(١) الديوان، صـ ٧٠.

ثم تحدثت الأبيات عن كثرة الضيوف والمستجيرين المروعة قلوبهم وهم ينزلون ساحة صخر فيكرمهم ويبلغهم مأمنهم ويصبحون خالين البال من كل بؤس .

ثم عادت الخنساء لتقول : إن طلوع الشمس يذكرها صخرا وكذلك تذكره وقت الغروب .

ثم تبدأ الأبيات حديثها بعد ذلك عن حالة الخنساء وولهها ، وأنه لولا كثرة الباكين حولها على إخوانهم لقتلت نفسها .

ثم تعطينا صورتين لامرأتين إحداهما: واله عجول ثكلى تبكي أخاها

والأخرى : لباكية تنوح ليوم مشئوم .

وتنفي الخنساء بعد ذلك أن يكون مصاب الباكين من حولها كمصيبتها في أخيها صخر ، ولكنها تعزي النفس عنه بالتصبر والتأسي ،إلا أنها أقسمت ألا تنسى صخرا أبدا حتى نهاية عمرها ، لأنها ودعت لذات الدنيا ومتعتها مع فراق صخر .

وفي النهاية تطلقها صرخة مدوية فتنفجر بالبكاء والعويل وتتلهف على نفسها وعلى أمها وتتحسر على فقدان صخر ، ثم تنكر استمرار صخر في ضريحه يصبح فيه ويمسي .

وبعد هذه الإطلالة السريعة على أجواء القصيدة ننتقل إلى تحليلها .

المحور الرابع
تحليل القصيدة

البيت الأول :

يُـوَرِّقُني التـذكُّر حـين أمسـي ∴ فأصبحُ قـد بُليتُ بفَـرطِ نُكـسِ[1]

تطالعنا القصيدة بقولها((يؤرقني)) والتعبير بصيغة المضارع يفيد استحضار الصورة الماضية ، وكأننا نراها رأي العين، وكأن التأريق يقع الآن، وكذلك يفيد تجدد التأريق واستمراره.

فالخنساء لم تقل : أرقني التذكر" لأن التعبير بالماضي يدل على أن التأريق حدث وانتهى، وهذا لا يتناسب مع حالتها.

وأضافت التأريق إليها " ياء المتكلم " ليدل على أنه خاص بها دون غيرها، حتى لو كان للأهل نصيب منه، إلا أنها انفردت بشدة التأثر.

وجاءت كلمة "التذكر" معرفة بالألف واللام لتدل على أن التذكر بلغ غايته وذروته حتى صار معهوداً فلا ينصرف إلا على تذكر " صخر " وكأنه معروف لدى الجميع.

وإسناد الفعل " يؤرقني " إلى " التذكر " على سبيل المجاز العقلي وعلاقته السببية كما في قول المتنبي :

والهـم يخـترم الجسـيم نحافـة ∴ ويصـيب ناصـية الصـبي ويهـرم[2]

وتكمن بلاغة المجاز العقلي هنا في المبالغة التي أحدثها هذا السبب وهو التذكر، فضلاً عن الإيجاز.

وقولها : ((حين أمسي)) بيان للزمان وهو وقت المساء.

لأنه وقت ينتهي الإنسان فيه من معظم أعماله، وهو وقت الخلوة مع النفس ومع الأحباب، ويكون التركيز فيه قد بلغ مداه، ومن ثم يطول ليلها ويزول نومها، ومن ثم يكون الأرق الذي وضحت أثره في الشطر الثاني ــ ((فأصبحُ قد بُليتُ بفَرطِ نُكس)).

---

(1) نُكس : على وزن فُعّل وهو عود المرض بعد النقاهة .

(٢) ديوان المتنبي ، جـ ٤، صـ ١٢٤، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

وبين قولها ((أمسي)) وبين قولها ((فأصبح)) طباق أبرز ما بين المساء والصباح من طول معاناة وشدة ألم وذلك على حد قول الشاعر :

قيل لي كيف أنت قلت عليل ∴ سهر دائم وحزن طويل[1]

ولا يخفى دلالة المضارعة في قولها : ((فأصبح)).

ثم أكدت الأثر والنتيجة التي حدثت من وراء هذا التأريق المستمر بدخول " قد " على الفعل الماضي في قولها : ((قد بُليت)) وهذا يتناسب مع قولها : ((بفرط نُكس)) والانتكاسة هنا غير عادية، دلت على ذلك كلمة ((بفرط)) التي أكدت أن المرض قد عاد أشد قوة من المرة الأولى.

لأن الانتكاسة في معظمها تكون أشد من المرض نفسه، ولهذا سميت انتكاسة، ولا يسمى المرض في أوله انتكاسه.

وهذا التعبير يشير إلى يأسها من الشفاء أو استبعاد الشفاء، وهذا تأكيد لاستمرار حالة الألم الذي تعانيه.

وقد تكون الانتكاسة بسبب تعدد صدمات الخنساء من موت أبيها وأخيها معاوية، ثم أخيها صخر. ولذلك لما قتل أخوها معاوية أخذت تحرض أخاها صخراً على الطلب بدمه وأخذ الثأر له.

فلما قتل صخر كانت الصدمة أشد ، ومن ثم كانت الانتكاسة حاصلة.

ونلاحظ التصريع في هذا البيت وهو توافق الحرف الأخير من المصراع الأول ((أُمسي)) والحرف الأخير من هذا البيت ((نُكس))، والتصريع هو ((جعل العروض مقفاة تقفية الضرب)) [2].

---

(1) جاء في بغية الإيضاح جـ١، صـ٧٦ ـ لا يعلم قائله.

(٢) شروح التلخيص، جـ ٤، صـ ٤٥٥- الإيضاح على البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، جـ٤، صـ ٩٨.

ومجيء التصريع في مطلع القصيدة يدل على عناية الخنساء واهتمامها بهذا المطلع، لأنه أول ما يصافح الآذان، ومن ثم فإن له أثراً محموداً في تشويق النفس وتحريكها لسماع الشعر، وهذا من صفات الشاعر الجيد .

وقد نص قدامة بن جعفر على ذلك في باب نعت القوافي بقوله :

((أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج، وأن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت من القصيدة مثل قافيتها، فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه. وربما صرعوا أبياتاً أخرى من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ..... وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك، لأن بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه كان أدخل في باب الشعر وأخرج له من مذهب النثر))[1]

ومما سبق اتضح لنا أثر التصريع ومكانته وما يحدثه من تنغيم موسيقي خلاب كما يقول صاحب الصبغ البديعي ((ويؤثر في النفوس تأثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن وتهش لها النفس فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور فيتمكن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول، وكل أولئك مما يتوخاه البلغاء ويقصده ذو البيان واللسن))[2] .

---

(1) نقد الشعر لقدامة بن جعفر، صـ ٨٦-٩٠، تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – وانظر في هذا المعنى " المثل السائر لابن الأثير صـ٢٣٧، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) الصبغ البديعي، صـ ٤٩٧، دار الكاتب العربي، القاهرة، طبعة وزارة الثقافة، ١٣٨٨هـ /١٩٦٩م .

" والخنساء لا تعمد إلى هذا اللون اللفظي إذا لم تكن تعني بموسيقى اللفظ في القصيدة. وأنت تجد الأمثلة الكثيرة على التصريع في شعرها مما يقطع أنها كانت تختار اللفظ الذي يتأتى منه موسيقى مقصودة، وهذه الموسيقى وإن كانت قد عمدت إليها عمداً إلا أنها خرجت غير متكلفة لسبب واضح هو أن قريحتها الشعرية مرنت أولاً على القريض في شعر النواح، وهو شعر له موسيقاه الذي لا ينشد بدونها في المآتم فأكسبها هذا المران مرونة وقدرة مكتسبة لإنشاء شعر يتميز بموسيقاه))[1].

(1) الخنساء شاعرة بني سليم، صـ ٢٠٨، دكتور / محمد جابر عبد العال الحيني، نقلا عن الخنساء شاعرة الرثاء للدكتور / محمود حمود، صـ ٦٣، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

البيت الثاني :

عَلَى صَخرٍ، وأيُّ فتًى كَصَخرِ ∴ ليَومٍ كَريهَةٍ وطِعانِ خِلسِ

هذا البيت مرتبط بما قبله أشد الارتباط، وكأن سائلاً سأل : عَلَى من بُليتِ بفرط نكس؟ فقالت : على صخر، وكلمة صخر في شعر الخنساء لها مدلول خاص ليس مجرد اسم تقوله على لسانها، بل إنه يمثل الكارثة والطامة والفجيعة، لأنه كان مليء قلبها ومليء حياتها ترى في رؤيته الأمن والأمان.

وكررت كلمة " صخر " وهو تكرار لنغمة حزينة تفيض بها نفسها، وهذا التكرار نوع من أنواع الإطناب، والغرض منه إظهار التحسر، وجاء الاستفهام هنا بمثابة التنبيه والإيقاظ وإثارة الفكر والحس، كل ذلك ليلتفت المتلقي إلى المقام والسياق حتى يصل إلى مراده منه فيستوعبه بكل حواسه وطاقاته.

والخنساء بهذا الاستفهام تبرز فتوة صخر، وكأنها تتعجب من فرط قوته التي لا تدانيها قوة وفتوة، وفيها معنى التحسر على الضياع وفقدان هذه الفتوة وهذه القوة، وكأنها ترثي هذه الصفات،

وكذلك يحمل الاستفهام في طياته معنى التفخيم والتعظيم لشأن صخر، ومن ثم نفت أن يوجد فتى يشبه صخراً، ولقد امتلأ قلبها وعقلها بهذا المعنى، ومن ثم كررته كثيراً في شعرها ومن ذلك قولها:

بكت عيني وعاودها قذاها ∴ بعوار فما تقضي كراها
على صخر وأيُّ فتًى كصخر ∴ إذا ما الناب لم ترأم طلاها
فتى الفتيان ما بلغوا مداه ∴ ولا يكدي إذا بلغت كداها[1]

---

[1] ديوان الخنساء صـ ١٢٣، تحقيق د. محمد محمود ـ الطبعة الأولى ١٩٩٨، دار الفكر اللبناني ـ بيروت .الناب : الناقة المسنة، لم ترأم : لم تعطف، لا يكدي : لا ينقطع ما عنده.

هذه الصورة ارتبطت فيها الفتوة بصورة الناقة المسنة التي لم تعطف على ولدها وقت الجدب لقلة طعامها، ولكن صخراً في مثل هذا الوقت التي تمنع الأم عطفها على ولدها، ولم تفكر إلا في نفسها بسبب الجدب والقحط، تجد صخراً فتى معطاءً يؤثر غيره على نفسه ولا يرد سائلاً في وقت الشدة وهذا تأكيد على شهامته وكرمه ومروءته.

ويفصح شعر الخنساء عن ذلك المعنى في قولها :

أنت الفتي الماجد الحامي حقيقته ∴ تعطي الجزيل بوجه منك مشراق[1]

ومن ذلك قولها :

لمرزئةٍ كأن الحوف منها ∴ بُعيد النوم يشعر حرّ جمر
على صخرٍ وأي فتى كصخر ∴ لعان عائل غلقٍ بوتر[2]

وهذه الصورة ارتبطت فيها فتوة صخر لصورة الأسير الفقير الذي لا يستطيع أخذ ثأره ولكن صخراً يأخذ حق هذا الأسير ويبلغه مأمنه، ولا يقوي على ذلك إلا الفتى القوي الأمين الذي يهابه الناس لقوته وحكمته وعدله بين الناس، ذلكم الفتى هو صخر.

ومن ذلك قولها :

نعم الفتى أنت يوم الروع
ونعم الفتى في يوم الوغي
فتى كان فينا لم ير الناي مثله
هو الفتى الكامل الحامي حقيقته[3]

ونختم هذه النماذج التي تصور فتوة صخر بقولها :

وصنويّ لا أنس معاوية ∴ الذي له من سراة الحرّتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا ∴ بساحته الأبطال قزم يقودها[4]

---

(1) ديوان، صـ ٩٨.
(٢) ديوان الخنساء، صـ ٥٤.
(٣) ديوان الخنساء، صـ ١٢١، ١١٨، ١٢٧.
(٤) ديوان الخنساء، صـ ٥٣.

إذًا صخر في نظر الخنساء لا يماثله ولا يشبهه أحد من النـــاس شجاعة وقوة ومروءة وشهامة وكرماً، فهو الجود والندى، فضلاً عن كونه فارساً مغواراً .

وكذلك كان صخر في نظر الناس كما عبرت أبياتها : " فتى كان فينا لم ير الناس مثله" .

مما سبق يتضح لنا امتلاء قلب وعقل الخنساء بمعنـــى الفتـــوة التي كان صخر يمثل أعلاها وقمتها ومن ثم تكرر قولها ((وأي فتى كصخر)) كثيراً في شعرها .

ويأتي الشطر الثاني لتدلل به على فتوة صخر وقوته وشجاعته فتقول : ((ليوم كريهة وطعان حلس)) .

فقولها ((ليوم كريهة)) والكريهة : النازلة والشدة في الحرب، وهو كناية عن شجاعته، وكذلك قولها : " وطعان حلس " فهو شـــجاع مـــلازم للقتال يستمر فيه حتى نهايته، لا يعرف للخوف طريقاً، ومن ثم لا يفر من المعركة، وهذا دليل على فرط شجاعته، فهي بـــذلك قـــد أثبتـــت المعنـــى مصحوباً بالدليل وهذا أبلغ من وصفها له بالشجاعة مباشرة، لأنه يحتـــاج إلى دليل وهذه بلاغة التعبير الكنائي .

وكأنها تقول : انظر إليه في يوم الحرب وانظر إلى كثرة طعناته تجده دليلاً على فرط قوته وشجاعته.

وجاء في اللسان: ورجل حَلس وحِلس ومستحلس:ملازم لا يبرح القتال وقيل لا يبرح مكانه، شبه بحلس البعير أو البيت، وفلان مـــن أحلاس الخيل. أي هو في الفروسية[1].

أي أن المادة اللغوية تدور حول ملازمة القتال وملازمة الطعن، وكل من ملازمة القتال وملازمة الطعن صفة للشجاعة تمتع بها صخر .

وقد صرح شعرها بذلك في قولها :

يـــا عـــين ابكـــي فارســـاً ∴ حســـن الطعـــان علـــى الفـــرس[2]

---

(1) اللسان : مادة " حلس" .

(2) ديوان الخنساء، صـــ ٨٣.

البيت الثالث :

وَلِلْخَصْمِ الألَدِّ إذا تَعَدّى ∴ لَيَأخُذَ حَقَّ مَظلُومٍ بِقِنسِ[1]

هذا البيت معطوف على سابقه وهو امتداد للصورة التي رسمتها الخنساء لصخر وهي صورة الفتوة والشجاعة، فهو في الحرب لا يشق له غبار، معروف بكثرة طعناته وملازمته للقتال، وكذلك هنا شجاع مع الخصم الألد عندما يتعدى، فالخنساء لم تقل خصم ولكنها وصفته بالألد وهو الشديد الخصومة الجدل، وقيدته بقولها : " إذا تعدى "، وهذا الوصف وهذا القيد لا يخلوان من دلالة في تحديد المعنى المراد .

فهذا التعبير يبرز الخصم في أقوى حالاته وأشرسها، فهو خصم عنيد وبخاصة إذا تعدى، ومن ثم يحتاج إلى قوة من نوع خاص، وهذه القوة متمثلة في قوة صخر.

وقالت " إذا " ولم تقل " إنْ " لأن " إذا " في الكثير الغالب تدخل على الشيء المقطوع به المحقق الوقوع أو المظنون وقوعه.

أما " إنْ " فتدخل في الكثير الغالب على الشيء غير المقطوع به المشكوك فيه، أو الذي يحدث قليلا أو يتوهم وقوعه، ويقول الإمام عبد القاهر : ((وينظر في الحروف التي تشترك في معنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء لـ " ما " في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ"إنْ " فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ"إذا" فيما علم أنه كائن)) [2].

ثم بينت العلة من مواجهة الخصم الألد الذي تعدى على حقوق المظلومين فيأخذه من هذا الخصم الألد، وهذا يحتاج إلى قوة أخرى

---

(1) القنس : الأصل، الألد : الشديد الخصومة الجدل .

(٢) دلائل الإعجاز ، صـ ٨٢ – وينظر في ذلك علوم البلاغة للشيخ أحمد المراغي ، صـ ١٣٤.

غير التي كانت في المعركة وهي قوة ضبط النفس وتحمل المخاطر في التعامل بين الناس.

وأبدعت الخنساء في قولها : " بقتس " حيث إن القَتس والقِتس : الأصل، فبهذه الكلمة أفادت الخنساء أن صخراً يأخذ الحق بأصل وعدل دون ظلم وجور، لأنه يقف بجوار الضعيف المظلوم، وفي ذلك إنصاف للمظلوم ووقوف بجوار الحق، إذًا صخر يدّ لمن لا يد له، وقوة لمن لا قوة له.

ولما كانت نفس الخنساء ممتلئة بهذه الصفات كررت ذلك في شعرها، فمن ذلك قولها :

وللخصم الألد إذا تعدى ∴ ليأخذ حق مقهور بقسر[1]

وبالنظر في الصورتين نلحظ هنا أن صاحب الحق مقهور بقسر، فالقهر هو الغلبة والأخذ من فوق، وأخذهم قهراً أي من غير رضاهم، والقسر : القهر على الكره، وقسره على الأمر: أكرهه عليه[2].

وأرى أن الخصم هنا أشد قوة وبأساً من الصورة السابقة، لأنه جمع بين القهر والقسر، ومن ثم يحتاج إلى قوة أكبر حتى يأخذ حق المظلوم الضعيف الكسير الذي تعرض للقهر والقسر معاً.

وصخر في مثل هذه الأحوال لا يرد حق المظلومين المادي فحسب وإنما يكسر قوة الخصم الباغي، ويرد للمظلوم هيبته التي ضاعت مع القهر والقسر، أمام أهله وعشيرته وهذا أكرم وأجل من رجوع الحق المادي في كثير من الأحيان.

وحُق للخنساء أن تقول : وأي فتى كصخر ؟".

---

(1) ديوان الخنساء صـ٥٤

(2) اللسان مادة : قهر ومادة : قسر.

البيت الرابع :

فلم أر مثله رزءاً يجنّ ∴ ولم أر مثله رزءاً لإنس[1]

هذا البيت متفرع على البيتين السابقين، فالفاء فاء التفريع وفيها معنى العطف وهذا التفريع أفاد أن معاني هذا البيت تأسست على المعاني والصفات الموجودة في البيتين السابقين، فبعد أن ذكرت الخنساء صفات صخر من قوة وشجاعة وفتوة ووقوفه أمام الخصم الألد من أجل نصرة المظلوم، من أجل ذلك لم تر ولم تسمع أن مصيبة حدثت لجن ولا إنس، مثل مصيبتها في صخر،أي أن مصيبتها فاقت كل مصائب الإنس والجن.

وهذا البيت بنته الخنساء على المبالغة لهول الموقف وشدة الصدمة، وذهول عقلها، ومن ثم رأت الأمر كذلك، فصخر في نظرها لا يماثله أحد من البشر، ومن ثم مصيبتها لا تماثلها مصيبة.

ولذلك روى أن عمر بن الخطاب دخل البيت الحرام فرأى الخنساء تطوف بالبيت محلوقة الرأس تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها. فوعظها فقالت : إني رزئت فارساً لم يرزأ أحد مثله. فقال : إن في الناس من هو أعظم مرزئة منك، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله، وإنه لا يحل لك لطم وجهك وكشف رأسك فكفت عن ذلك[2].

والذي يعنينا في هذه الرواية قولها : إني رزئت فارساً لم يرزأ أحد مثله. لأن هذا الكلام هو عين البيت الذي معنا.

فقد عظمت مصيبة الخنساء في عينها كما نطق بذلك شعرها إذ قالت :

ألا يا عين ويحك أسعديني ... فقد عظمت مصيبته وجلت

---

(1) الرزء : المصيبة بفقد الأعزة .

(2) الديوان، صـ ٩٦.

مصيبة علـــيّ وروّعـتني ... فقد خصت مصيبته وعمت[1]

هكذا رأت الخنساء مصيبتها في صخر.

ولكن إذا نظرنا بعين الواقع نجد أن في كلام الخنساء مبالغة، بل غلواً، لأن العقل يقول : بأن الخنساء وغيرها لا يستطيع أن يحصر ويقدر كل المصائب التي تحدث للجن والتي تحدث للإنس معاً، ولذلك رأينا في كلام سيدنا عمر بن الخطاب السابق دليلاً على ما نقول إذ قال للخنساء : " إن في الناس من هو أعظم مرزئة منك " . وبذلك يمتنع عقلاً وعادة حصر جميع مصائب الجن والإنس، ويمتنع عقلاً وعادة أن مصيبتها أكبر وأعظم من كل مصائب الإنس والجن، لأن صخراً بشر وأمثاله كثيرون لا حصر لهم. ومن ثم كان كلامها من قبيل الغلو وهو" ما كان الوصف المبالغ فيه ممتنعاً عقلاً وعادة"[2] ولو أن الخنساء جاءت بما يقرب ذلك من الصحة والإمكان كلفظ ــ كاد ــ ولو ــ ولولا ــ ولفظ " يخيل " أو ضمنته نوعاً حسناً من التخييل لكان كلامها مقبولاً.

ويمكن حمل معنى البيت على أن الخنساء تريد أن تقول : فلم أرى مثله مصيباً لجن ولم أر مثله مصيباً لإنس، وهو وصف له بالقوة الخارقة التي فاقت قوة الإنس وقوة الجن، بمعنى أنه لا توجد قوة تقف أمامه فتصده وتهزمه، ومن ثم قالت في البيت الذي يليه : "أشد على صروف الدهر أيداً" .

فعلى المعنيين نجد أن الخنساء بالغت في وصفها ووصلت بهذه الصفة إلى حد بعيد. وإن كان هو كذلك في نظرها وهذا حقها.

---

(1) الديوان صـ٣٦

(2) شروح التلخيص جـ٤، صـ٣٥٧، والإيضاح على البغية جـ٤، صـ٤٧.

البيت الخامس :

أشدُّ عَلى صُروفِ الدَّهرِ أيداً ∴ وأفصَلُ في الخُطوبِ بغيرِ تَبسِ

تتوالى صفات صخر ذات القوة والشدة والصلابة .

فصخر أشد الناس قوة وصلابة على نوائب الدهر وتصاريفه، وكأن الخنساء عقدت مفاضلة بين الناس وبين صخر، فرأت تفوق صخر في شدته وصلابته، ولا يمنع أن تشمل المقارنة عالم الجن – أيضاً – بدليل البيت السابق إذ قالت : فلم أر مثله رزءاً لجن ..... فهو أشد يداً من الجن والإنس على نوائب الدهر، هكذا ترى الخنساء صخراً.

ونلحظ أنها قدمت ((صروف الدهر)) على قولها : " أيداً " فلم تقل : أشد يداً على صروف الدهر، لأنها قدمت في الأبيات السابقة أكثر من صفة للقوة والفتوة وكثرة طعانه في الحرب، وتصديه للخصم الألد لنصرة المظلوم.

إذًا صفات القوة أصبحت ظاهرة للعيان فلا حاجة إلى تقديم "أيداً".

ولكن المهم هنا هو لفت القارئ إلى صروف الدهر، ومن ثم أتت بها جمعاً للدلالة على كثرتها. وهذه الصروف الكثيرة تحتاج إلى قوة وصلابة وجلادة وهذا ما أوحت به كلمة " أشد ".وكلمة "أشد" بالنصب مرتبطة بالبيت السابق لأنها مفعول لفعل محذوف دل عليه الكلام السابق إذ التقدير ــ فلم أر مثله رزءا لجن، ولم أر مثله أشد على صروف الدهر يداً.

ومن هنا ليس من الغريب على صخر أن يكون أفصل في الخطوب من غيره، دون أن يختلط عليه الأمر ويلتبس، وكلمة " أفصل " أفعل تفضيل، والفصل : القضاء بين الحق والباطل وقد جاء

في القرآن الكريم : ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (١) فالفاصل صفة من صفات الله عز وجل.

والخنساء تشير بهذه المعاني إلى شيء مهم، وهو حكمة صخر وأنه أوتي فصل الخطاب ، لأن الفصل في القضاء بين الناس يحتاج إلى رجاحة عقل وبصيرة نافذة وفكر ثاقب ليوازن بين الأمور، ويحتاج - أيضاً - إلى عدل القاضي.

وقولها : " بغير لبس" إشارة إلى صواب قضائه وعدم الخطأ في الفصل بين الناس. كذلك تشير الخنساء إلى أن القوة المتمثلة في صخر يزينها عقل راجح يفصل في الخطوب والملمات فهي قوة ليست متهورة ،ولا يوظفها إلا في الحق والعدل بين الناس.

وكذلك تشير الخنساء إلى فصاحة وبلاغة صخر في الخطابة التي يقتضيها مقام الصلح بين المتنازعين، والتي هي - أيضاً - من مظاهر التفاخر عند العرب وبها يتفاضلون .

وقد نطق بذلك شعر الخنساء إذ قالت :

فلأبكينك سيداً ∴ فصل الخطاب إذا التبس (٢)

وقولها :

هو الفارس المستعد الخطيب ∴ في القوم واليسرُ الوعوع (٣)

إذًا وصفته بأنه خطيب ، وفصل الخطاب ، فحق لها أن تصفه هنا بأنه أفضل من يفصل في الخطوب بغير لبس.

كما زكت سداد رأيه في قولها :

فبكيته فقد ولى حميداً ∴ أصيل الرأي محمود الصديق (٤)

---

(١) الأنعام الآية رقم (٥٧).
(٢) الديوان، صـ ٨٣.
(٣) الديوان، صـ ٨٨. (الوعوع : البعيد الذكر)
(٤) الديوان، صـ٩٧.

البيت السادس والسابع :

وضيفٍ طارقٍ أو مستجيرٍ ∴ يُروِّع قلبُه من كل جرس
فأكرمه وآمنه فأمسى ∴ خلياً بالُه من كل بؤس

تصور الخنساء صورة الضيف الطارق ليلاً، وصوت المستجير الخائف الفزع عند لجوئها إلى صخر،وكيف كان صخر يستقبلها ويخفف من وطئتهما فيكرمهما ويعطيهما الأمن والأمان ومن ثم الاستقرار.

وبدأت الخنساء بقولها : "وضيف طارق " والعرب تقول : كل ما أتى ليلاً فهو طارق"[1] ومن ثم فهو أولى بالرعاية، وفي الكثير الغالب جاء يطلب الحماية والأمان، ويمكن حمل المعنى على أنه رجل مضياف يستقبل كل ضيف فيكرمه، فيكون المعنى عموم ضيف .

والواو في كلمة ((وضيفٍ)) واو" رُبَّ "، و" ضيفٍ "مجرورة بـ " رُبَّ "، و" رُبَّ هنا للتكثير، لأن المقام مقام مدح ، وهو سياقها، وهو سياق تأكيد كرم صخر مع أضيافه.

ولقد كانت هذه الصفة متأصلة عند صخر، ولذلك نطق بها شعر الخنساء في أكثر من موضع، من ذلك قولها :

نعم الفتى كان للأضياف إذ نزلوا ∴ وسائل حلّ بعد النوم محروب[2]
كم من منادٍ دعا والليل مكتنع ∴ نفّست عنه حبال الموت مكروب
ومن أسير بلا شكر جزاك به ∴ بساعديه كلوم غير تجليب

وتقول في موضع آخر :

من لضيف يحل بالحى عان ∴ بعد صخر إذا دعاه صياحا؟ [3]

فهي بعد ذلك تتحسر وتساءل من ذا الذي سيقري الضيف بعدك؟ إذ تقول :

فَمَن لقري الأضياف بعدك إن هم ∴ قبالك حلوا ثم نادوا فأسمعوا؟[4]

---

(1) اللسان : مادة طرق .
(2) الديوان، صـ ٣٢.
(3) الديوان، صـ ٤١.
(4) الديوان، صـ ٨٧.

ونلحظ أن الخنساء أتت بصوت المستجير بعد الضيف الطارق.

ولا شك أن المستجير أشد فزعاً وخوفاً وأكثر اضطراباً من الضيف الطارق وهنا ترق في الصفات والأحوال، ومن ثم بينت حاله في تعبير دقيق معبر بقولها : " يروع قلبه من كل جرس " إذًا المستجير الخائف الفزع يحتاج إلى رعاية وجهد أكبر من صورة الضيف الطارق الذي هو أقل خوفاً وفزعاً.

ولكن ماذا صنع صخر لمن طرق بابه، وللمستجير الخائف الفزع؟

لقد فك كربه وأزال خوفه بعد أن أكرمه.

ونلحظ أن الصورة بدأت بقولها : فأكرمه " ولا يخفى دلالة الفاء هنا من إفادة سرعة التعقيب وأظهرت سرعة رد الفعل والاستجابة عند صخر فكان الإكرام على الفور، ولكن لماذا بدأ بالإكرام قبل الأمان هنا؟. وكأن هنا إشارة إلى قوله تعالى ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (١).

فالإطعام من الجوع مقدم على الأمن من الخوف، لأن شدة الجوع ملهبة.

وهكذا حال الخائف الفزع المكروب، أنىَّ له من الوقت والهدوء ليجلس إلى طعامه؟ فعندما يزول الجوع تهدأ النفس قليلاً ويتمالك الإنسان شيئاً من قواه فيتماسك. ومن المعلوم أن إكرام الضيف شيمة من شيم العرب تميزوا بها من غيرهم، وأقرها الإسلام، ونطقت بها السنة المطهرة .

وفي النهاية يمسى هذا المكروب الفزع خلي البال من كل مكروه.

ونلحظ دقة الخنساء في اختيار الألفاظ المعبرة عن المقصود فقالت : " خلياً" ولم تقل " خالياً" فما جاءت به أبلغ، حيث أفادت

---

(١) قريش : آية ٤

المبالغة في الاطمئنان ، وقدمت المسند " خلياً " على المسند إليه " باله " لإفادة العناية والاهتمام بشأن المقدم، ولإبراز صنيع صخر لهذا المكروب الخائف الفزع، وهذا ما جاء من أجله هذا المستجير، ولذلك تآزرت صيغة المبالغة " خلياً " مع قولها : ((من كل بؤس)) في إزالة ومحو كل خوف استقر في قلب المستجير، وفي قلب كل مكروب نزل بساحة صخر.

وكيف لا وهو أشد على صروف الدهر أيداً، وأفصل في الخطوب بغير لبس...

وهنا تتكامل صورة المناقب التي تمتع بها صخر، والتي نطقت بها الأبيات : من البيت الثاني حتى البيت السابع. لتبدأ بعدها مرحلة أخرى من البكاء والعويل وإبراز حالتها النفسية الباكية الحزينة أبدا...

وكأنها بذلك تبكي هذه الصفات والمناقب لترينا عظمة أخيها صخر، وأنه حقاً جدير بأن يُبكى عليه الدم قبل الدموع.

وهذا ما ستفصح عنه بقية أبيات القصيدة.

البيت الثامن :

يُذكِّرني طُلوعُ الشمسِ صخرا ∴ وأذكُرهُ لكلِّ غُروبِ شمسِ

هذا البيت يشبه الصرخة الموجودة في البيت الأول من القصيدة "يؤرقني التذكر حين أمسي" فكلاهما يحمل معان مثيرة ونافذة توقظ كل شجى.

واستحضرت الخنساء الصورة بصيغة المضارعة " يذكرني " وأذكره)). وكأننا نراها رأى العين تتجدد أمامنا ، ولاسيما أنها قرنت كل مضارع بما يتجدد في كل يوم . وبما هو مستمر على الدوام، وهذا من سنن الله في كونه، وهو طلوع الشمس وغروبها . وهذا ما يحدث في كل صباح ومساء ، ولا يخفى التناغم الموسيقي بين " يذكرني " وبين "أذكره "

وهذا البيت يحمل في طياته أكثر من معنى .

أولا : أن الخنساء أرادت بطلوع الشمس الدلالة على الشجاعة وهو الوقت الذي كان يغير فيه صخر على أعدائه ، وأرادت بطلوع الشمس – أيضا – جمال وجه صخر لأنه كان من أجمل الفتيان في عصره .

ثانيا : أرادت بغروب الشمس الدلالة على الكرم،لأنه الوقت الذي يكرم فيه صخر أضيافه وهو وقت إكرام الضيفان عند العرب .

ويقول ابن أبي الإصبع :

" فخصت هذين الوقتين وإن كانت تذكره في كل وقت، لما في هذين الوقتين من النكتة المتضمنة تأبين الميت، والمبالغة في وصفه بالشجاعة والكرم، لأن طلوع الشمس وقت الغارات على العدى، ووقت غروبها : وقت وقود النيران للقرى[1].

([1]) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ص٤٩٩ – ٥٠٠

ويرجح الدكتور محمد أبو موسى" أن الخنساء لا تريد أنها تذكره في هذين الوقتين فحسب كما يدل على ذلك ظاهر تعبيرها ، وإنما هي تذكره في كل وقت من أوقات الليل الذي تكون فيه الشمس غاربة، وأوقات النهار الذي تكون فيه الشمس طالعة هي تذكره في الأوقات كلها "[1].

ومما يؤكد أن الخنساء لا تريد أن تذكره في هذين الوقتين، فحسب وهما وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ما ذكرته في شعرها.

كقولها :

إني تذكرته والليل معتكر ∴ ففي فؤادي صدع غير مشعوب [2]

فهي هنا تذكرته والليل شديد السواد، وهو وقت غير وقت الغروب .

وقولها :

إذا ذكر الناس السماح من امرئ ... وأكرم أو قال الصواب خطيب[3]

ذكرتك فاستعبرت والصدر كاظم ... على غصة منها الفؤاد يذوب

فذكرته الخنساء هنا عندما يذكر الناس صفة السماح من إنسان ، أو يصيب خطيب ، وهذا يحدث في الليل وفي النهار ، إذاً ليس مرتبطا بطلوع الشمس ولا بغروبها.

وفي قولها- أيضا- :

تذكرت صخرا إذ تفنت حمامة ... هتوف على غصن من الأيك تسجع[4]

وقولها :

إني تذكرني صخراً إذا سجعت ... على الغصون هتوف ذات أطواق[5]

---

(١) قراءة في الأدب القديم ص ٢٦٣ د. محمد أبو موسى الطبعة الثانية ١٩٩٨م مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) الديوان، صـ٣٢ .

(٣) صـ٣٢ .

(٤) صـ٩٠ .

(٥) صـ٩٧ .

ومن المعلوم أن غناء الحمام ليس مرتبطا بوقت محدد، فإذا كانت الخنساء تذكر صخرا في كل هذه الأوقات، وفي كل هذه الأحوال، فهي التي أقسمت ألا تنساه أبدا إذ قالت:

فَلا واللهِ لا أنساكَ حتّى أفارِقَ مُهْجَتي ويُشَقَّ رَمْسي(١)

ولا يخفى إسناد الفعل "يذكرني" إلى طلوع الشمس من قبيل المجاز العقلي والعلاقة السببية، حيث إن طلوع الشمس وكذلك غروبها سبب في تذكر الخنساء لأخيها صخر . وهذا كالذي مر في قولها " يؤرقني التذكر" .

(١) الديوان، صـ٨٢.

البيت التاسع :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

إن الخنساء قد أرقها تذكرها لصخر الذي ظل يلازمها كالهواء الذي تتنفسه ، وأصبحت لا تستغني عنه ، وهذا الأمر كاد أن يقضي على حياتها، ومن ثم كادت أن تقتل نفسها والذي منعها من ذلك، كثرة الباكين حولها على إخوانهم .

وقد بنت الخنساء هذا البيت على الشرط مما أدى إلى تماسك البيت وكأنه جملة واحدة للارتباط الشديد بين أول كلمة وأخر كلمة في البيت .

وهذا البيت يشير إلى أن الذي هون الخطب عليها، ومنعها من قتل نفسها هو كثرة الباكين حولها على إخوانهم على حد المثل القائل : " من رأى بلوة غيره هانت عليه بلوته "

ولقد عبرت الخنساء بالكثرة التي تتناسب مع حجم مصابها وشدة حزنها.

وقد أكدت كلامها بدخول اللام على الفعل (لقتلت) .

وقد بنت هذه الجملة على المبالغة التي خففتها (لولا) وجعلتها مقبولة،ومن ثم أتت بها في صدارة البيت .

(وأما المبالغات فهي من مستحسن الشعر مادامت تفيض بها نفس الشاعر من غير تكلف ولا تصنع .. ولا يكون مبالغا ولا كاذبا لأنها عنده كذلك .. ولا تستطيع أن تقول إن هذا الشعر مردود لهذه المبالغة بل هي فيه جوهره.. وأكثر فنون الكلام بنيت على المبالغة)[1]

([1]) الإعجاز البلاغي، ص٢٦٦-٢٦٨ بتصرف يسير، د / محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٥/ ١٩٨٤ .

البيت العاشر والحادي عشر :

ولكـــن لا أزال أرى عجـــولا ... وباكيـــة تئنـــوح ليـــوم نحـــس
أراهـــا والهـــا تبكـــي أخـــاها ... عشـــيّة رزئـــه أو غـــب أمـــس

مازال مشهد البكاء والعويل مستمرا، فالخنساء مازالت ترى ثكلى تبكي وتنوح على فقيدها وهو أخوها . فهي ترقب المشهد هنـــا مع الثكلى وفي ذاكرتها كثرة الباكين حولها على إخـــوانهم ، وفـــي نهاية رؤيتها لما شاهدته قررت أن هؤلاء جميعا رجـــالا ونســـاء لا يبكون مثل أخيها صخر .

وقد استحضرت الصورة في البيت العاشر من خلال صـــيغة المضارع (أزال) وقولها: " تنوح " ولكنها بدأتها بقولها " ولكـــن لا أزال . و "لكن" هنا ساكنة وقد وليتها جملة وهي حرف ابتداء لمجرد إفادة الاستدراك، وليست عاطفة كما يقول ابن هشـــام فـــي مغنـــي اللبيب[1] .

وكأن الخنساء لما روت لنـــا كثـــرة البـــاكين حولهـــا علـــى إخوانهم، رأت في واحدة من هؤلاء تشبهها في حزنها على صـــخر، فلفت ذلك نظرها فأرادت أن تبرز لنا هذه الحالة من مجموع حـــالات من بكى حولها وكأن فيها تسلية وعزاء لها، وإن شـــئت قـــل : رأت نفسها في تلك المرآة الثكلى العجول والباكية التي تنوح . فهـــي قـــد استدركت هذه الحالة من جملة حالات الباكين حولها .

ووصفت المرأة بالعجول وهذا له دلالته، وهو اختيار موفـــق للخنساء وتوظيف جيد للكلمات ، فهذه الكلمة مصورة للموقف أشد ما يكون التصوير.

وفي اللسان (والعجول من النساء والإبل : الواله التي فقدت ولدها الثكلى لعجلتها في جيئها وذهابها جزعا) .

---

(1) مغني اللبيب لابن هشام ج1 ص ٣٢٢ – تحقيق محـــي الـــدين عبدالحميد المكتبة العصرية – بيروت ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ .

ثم ذكر صاحب اللسان بيت الخنساء :

فما عجولٌ على بوٍّ تطيف به لها حنينان إعلان وإسرارُ[1]

والجمع عُجُل وعجائل ومعاجيل، والأخيرة على غير قياس . هكذا قال صاحب اللسان[2].

إذًا صورة هذه الثكلى العجول جزعة هلعة فيها حركة غير متوازنة، نظرا لحالة الهلع والجزع التي عليها لشدة حزنها على مصابها .

والصورة الأخرى هي: صورة باكية تنوح وهي أمارة من أمارات الحزن،لأن من شأن البكاء أبدا أن يكون أمارة للحزن، وأن يجعل دلالة عليه وكناية عنه كما يقول الإمام عبد القاهر[3]. ولكن الصورة أقل تأثيرا من صورة المرأة الثكلى العجول، ومن ثم بدأت بها الخنساء .

ولكنها جعلت الباكية تنوح ليوم نحس، فأضافت اليوم إلى النحس لتبرز مقدار الجهد والضر والشؤم الذي أصاب تلك المرآة، وهذا ما أوحت به كلمة "نحس".

وقد وصفت الأيام بالنحسات في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [4] أي أيام مشئومات على القوم .

---

(١) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها وسميت بذلك لعجلتها في جيئها وذهابها جزعا .
النحس: غب كل شئ عاقبته وأخره، وفي الأصل: الجهد والضر .
الوله: الحزن، وقيل ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن.

(٢) اللسان : مادة " عجل " .

(٣) دلائل الإعجاز، صـ ٢٦٩.

(٤) فصلت : آية ١٦.

وفي البيت الحادي عشر :

استمرار للمشهد وتكثيف لصورة هذه الوالهة التي تبكي أخاها، وهو تصوير بلغ الحزن فيه غايته، إذ ذكرت كلمة (والها) والوله : الحزن ، وقيل ذهاب العقل والتحير لفقدان الحبيب [1].

والضمير في قولها (أراها) يعود على قولها : " وباكية تنوح "، لأن الضمير ألصق بهذا القول ، ولأن الصناعة النحوية لا تجيز الفصل بين الأشياء المتلازمة بالأجنبي وهو هنا العطف ، فعطف الجملة أو الاسم يفصل بين الأشياء المتلازمة ، والعرب لم تفصل بين الأشياء المتلازمة إلا بشبه الجملة[2].

وبهذا تكون الخنساء قد أضافت صفة الوله للباكية التي تنوح، وذكرت " أخاها " لأن مصيبتها واحدة، وهو فقدان الأخ.

فالخنساء بهذا التصوير كأنها تصور حالتها هي، ورأت شبهها لها في الحالتين العجول والباكية التي تنوح وهما في حالة شديدة من الوله والحزن .

ويمكن رجوع الضمير في قولها:"أراها" على قولها: "عجول" لأن الخنساء تقول: "أراها والها تبكي أخاها" والوله من صفات العجول ، فيكون تقدير الكلام في البيتين :

ولكن لا أزال أرى عجولا أراها تبكي أخاها .

ومن جهة أخرى : أن الباكية الأخرى تنوح ليوم نحس وشؤم، وليس نواحها على فقد أخيها، مما يقوي هذا الرأي، ومن ثم رجوع الضمير في قولها:"أراها" وإن خالف الصنعة النحوية إلا أنه أبر وأوفى بالمقام .

---

(1) اللسان : مادة " وله.

(2) ينظر في ذلك مغني اللبيب لابن هشام، جـ٢، صـ٦٩٣، تحقيق محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية،بيروت،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

وعلى كل سواء عاد الضمير على قولها : (عجولا) أو على قولها : " وباكية تنوح " فإن الصورة لا تتغير كثيرا، حيث إن الصورة جمعت بين امرأتين جمع بينهما البكاء والجزع، وكل من المشهدين خفف من ثورة الخنساء وهدأ من روعها .

وإن من بينها من تبكي أخاها وهي أشبه حالة من حالة الخنساء

وإذا كانت الخنساء قد وضحت الحال، فقد ذكرت الزمان وهو عشية المصيبة ونهاية أمسها .

ووقت العشي كما جاء في اللسان . آخر النهار وأول الليل وأول الظلام من الليل ، وقيل من صلاة المغرب إلى العتمة ويقال : لقيته عشية يوم كذا ، وأتيته عشى أمس .

والمساء: بعد الظهر إلى صلاة المغرب ، وقال بعضهم : إلى نصف الليل [1].

وقالت الخنساء " غب أمس " وغب كل شئ : عاقبته ، وغبّ الأمر ومغبته : عاقبته وآخره [2] إذًا المعنى هنا : نهاية الأمس .

أي أن الوقت ممتد من بعد الظهر إلى نصف الليل تقريبا، وهو وقت يجمع بين بداية العشي ونهاية المساء .

ولا شك بأن الوقت قد طال، ومن ثم يظهر مدى حالة الانهيار والإعياء التي أصابت الثكالى وهن يبكين وينحن، وفيه استمرار لشدة الحزن وهذا ما تقصده الخنساء من إبراز استمرار حزنها وولهها على أخيها، فليس غريبا أن تقول : " ولولا كثرة الباكين حولي لقتلت نفسي " .

---

(1) اللسان : مادة عشا، ومادة مسى .
(2) اللسان : مادة " غب" .

البيت الثاني عشر :

وَمَا يَبكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِي

بعد أن ذكرت الخنساء كثرة الباكين حولها وأثر ذلك على تخفيف صدمتها، وبعد أن ذكرت صورة العجول الثكلى، وصورة الباكين التي تنوح ليوم نحس، عادت الخنساء لتنفي أن يكون بكاء الجميع مثل بكائها ، وأن مصاب الجميع مهما علت مكانته ليس كمصابها .

نعم إنه صخر ، وأي فتى كصخر ؟! إن صخرا في نظر الخنساء ليس كمثله أحد من البشر، كما نطق بذلك شعرها ، ولذلك قالت :

بكيتكَ في نساءٍ مُعولاتٍ وَكُنتَ أحقَّ مَنْ أبدىَ العويلا[1]

نعم أنا أحق منهن بالبكاء وإظهار العويل، لأنه لا يوجد مثلك يا صخر يبكي عليه.

وفي البيت إيجاز بالحذف وهو حذف المفعول به أي وما يبكون أحدا مثل أخي ، حذفته ثقة منها بفهم السامع، ولدلالة السياق والمقام على المحذوف ، وقد صانت بذلك الحذف كلامها من الثقل والترهل .

وقد أشاد الإمام عبد القاهر بروعة هذا الحذف وبلاغته بقوله :

"هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[2] .

---

(1) الديوان، صـ ١٠٨.

(2) دلائل الإعجاز، صـ ١٤٦، تحقيق محمود شاكر .

وللبيت روايتان في قولها : "وما يَبْكونَ" ورواية أخرى "وما يبكين" ، فقولها : "وما يَبكُونَ" يكون البكاء من الرجال والنساء . وأما (وما يبكين) فخاص بالنساء .

وأرى أن (وما يبكون) أبر وأوفى بالسياق والمقام؛ لأن الخنساء لم ترد قصر البكاء على النساء فقط، فهذا لا يتناسب وحجم مصابها وحالتها النفسية .

فهي تريد أن تقول : مهما بكى الناس جميعا رجالا ونساء فإنهم لم يبلغوا مثلي .

بل تعدى ذلك إلى الجن والوحوش وذلك في قولها :

والشمسُ كاسفةً لهلكه ... ومَا اتسقَ القمر
والإنسُ تبكي وَلَهاً ... والجن تسعد من سمر
والوحوشُ تبكي شجوها ... لما أتى عنهُ الخبر [1]

إذًا لم تبك النساء فقط على صخر، ولم تبك النساء مصائبهن دون الرجال ، ولذلك كان قولها " وما يبكون " أنسب للسياق ، ولا يخفى دلالة المضارع في " يبكون " فهي لم تقل : وما بكوا لأنها تريد أن تقول : لو ظلوا يبكون طوال حياتهم ما يبكون مثلي ، ولأن صورة البكاء متجددة حولها ومتجددة في نفسها وهي التي *قالت :*

وسوفَ أبكي ما ناحت مطوقةٌ ... وما أضاءت نُجومُ الليل الساري [2]

وأيضا :

فلأبكينكَ ما سجعتْ حمامة ... تدعو هديلا في فروعِ الفرقد [3]

(وبذلك يظل في نفسها حس متفرد يحول بينها وبين أن تندمج في جملة الثكالى،لأنهم لا يبكون مثل أخيها) [4] .

وقولها : " ولكن .... أعزي النفس عنه بالتأسي ".

---

(1) الديوان ص ٦٨ .
(٢) الديوان ص ٦٥.
(٣) الديوان ٥٢.
(٤) قراء في الأدب القديم ص ٣٠٠.

" لكن " هنا ساكنة وجاء بعدها جملة، فهي الاستدراك، فلقد نفت الخنساء من قبل أن يكون في المفقودين أحد يشبه أخاها، ولكن مع كونهم لا يبكون أحدا مثل أخيها، إلا أن في ذلك البكاء على إخوانهم عزاء لنفسها، لأنها تأست بهم، فهوّن عليها مصيبتها .

وذكرت " النفس" معرفة بالألف واللام فلم تقل أعزي نفسي لأن النفس هنا معهودة ومعلومة وهي نفس الخنساء .وإشارة إلى أن هذه النفس تستحق الشفقة والرأفة؛لأنها كم تألمت كثيرا لفراق صخر.

وتأتي بلاغة الاستدراك هنا في اللفت والإشارة إلى ما بعد " لكنْ " لأنه هنا مقصود قصدا ،فالمتلقي دائما يسأل وماذا بعد (لكنْ)؟ وهو هنا جزء من تصوير نفسها.

وهذا البيت احتراس لما في البيت التاسع :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتْ نفسي

وقد ذكر بدرالدين بن مالك المعروف"بابن الناظم"في كتابه"المصباح":

ففطنتْ لتوجه أن يقال لها قد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس ، فلم فرطت في الجزع عليه ؟ فاحترستْ بقولها :

وما يبكونَ مثلَ أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي (١)

فهي تشير إلى أنه ليس ورائى حيلة إلا أن أعزي نفسي بالتصبر والتأسي بكثرة الباكين حولي.والتأسي:التصبر. يقول المبرد:

" والتأسي" : أن يرى ذو البلاء مَنْ به مثْل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيسكن من وجده"(٢) .

فلا حيلة للخنساء سوى ذلك وهي أن تعزي نفسها عن أخيها بالتأسي.

---

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك ص٢٢٥ دار الكتب العلمية بيروت

(٢) نقلا عن ديوان الخنساء ص٦٨ – المكتبة الثقافية بيروت .

البيت الثالث عشر:

فـــلا واللهِ لا أنســـاك حتّـــى أفـارقَ مُهجَـتي ويَشُـقَّ رَمسِـي

بعد أن ذكرت الخنساء في البيت السابق أنه لا حيلة أمامهـا سوى تعزية النفس بالتأسي نفت هنا سكون وجدها وهـدوء نفسـها ولتؤكد حالة الهلع والفزع وشدة الحزن التي عليها بهذا القسم فـي قولها : " فلا والله لا أنساك ... وهو أسلوب إنشائي غير طلبي ."

وأتت بـ "الفاء" هنا وهي فاء التفريع لأنهـا أسسـت هـذا المعنى هنا على المعنى الموجود في البيت السابق، وهذا يعد رجوعا عما قررته في البيت السابق في قولها :" ولكن أعزي النفس بالتأسي " ولكنها عادت مسرعة ورجعت في كلامها وكأنها لا تريد أن تتصبر أو أن تتأسى بغيرها لأن ذلك التعزي في نظرها سينسيها صخرا شيئا ما ، ولذلك أتت بالفاء مسرعة بهذا الكلام ناقضة قولها السابق ومن ثم جاءت بالقسم .

وسر هذا الصنيع من الخنساء هو تصوير حالة الكآبة وشدة الحزن والوله التي سيطرت على عقلها واستولت على فكرها فدفعتها إلى الرجوع عن فكرة التعزي والتأسي ؛ وكأنها رأت في ذلك عيبـا وعدم وفاء لأخيها صخر .

ولذلك قال البلاغيون عن الرجوع " هو العود علـى الكـلام السابق بالنقض "لنكتة"[1]، وقد بينا نكتة رجوع الخنساء عن كلامهـا السابق .

ولما كانت الخنساء تريد نفي الاستقبال أتت بـ " لا " دون " ما " التي هي لنفس الحال، وهذه دقة من الشـاعرة فـي توظيـف الحروف ، ومن ثم جاء نظمها متماسكا لفظا ومعنى ، وهـو جـزء رئيس من نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر إذ ذكر ذلك عند حديثه

([1]) شروح التلخيص ،جـ٤، صـ ٣٢١.

عن نظرية النظم بعد أن قال :" اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشئ منها.... فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغي له .

بعد ذلك قال :

" وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ؛ فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجئ بـ(ما) إذا أراد نفي الحال ، وبـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال ... "[1].

وأتت بالقسم في قولها (والله) لتأكد ما في نفسها وتقرره، وأنه موضع اهتمام منها ، ولإظهار صدق رغبتها في تحقيق ما تريد.

وقولها : " لا أنساك حتى .." كاف الخطاب هنا لصخر وهذا التفات من المتكلم في البيت السابق " ولكن أعزى النفس " إلى الخطاب في *قولها* : " لا أنساك .. "

وهذا أمر طبعي، لأن الحديث منصب على صخر وعلى حالتها النفسية المترتبة على فراقه . فالرباط وثيق بينها وبينه .

فهي لم تقل فلا والله لا أنساه ، ولكن قالت : لا أنساك لأنه ماثل أمامها وحاضر في عقلها بل في كل جوارحها تذكره في كل وقت وحين فكيف تخاطبه بضمير الغائب إذاً؟

ومن ثم كان لقولها " لا أنساك " وقع جميل في إيقاظ الحس وإثارة النفس ولفتها. وهذا من محاسن الكلام وجيده .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨١- ٨٢ بتصرف .

وقد أشار الإمام الزمخشري إلى بلاغة الالتفات وأثره في النفس " ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد،وقد تختص مواقعه بفوائد"[١].

وقد جعله ابن الأثير خلاصة علم البيان التي حولها يُدَنَدن وإليها تستند البلاغة وعنها يعنعن فقال : " واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان ، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها ، وفتش عن دفائنها ، ولا تجد ذلك في كل كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا[٢] .

وقولها : " حتى أفارق مهجتي .." تحمل في طياتها معاناة نفسية ومكابدة مضنية ، لأن ما بعد حتى هو نهاية حياتها وقد يكون مابين حتى وبين مفارقتها الحياة أمد بعيد، ومن ثم يزداد تعذيبها لنفسها بهذا الوله والجزع .

وذكرت المهجة لأنها دم القلب ولا بقاء للنفس بعد ما تراق مهجتها ، والمهجة : الروح ، وخرجت مهجته أي روحه [٣].

وأكدت كلامها السابق بقولها:"ويُشق رمسي" والرمس:القبر، والدفن وحثي التراب،ورمسه بالتراب أي دفنه،والمرمس:موضع القبر[٤].

---

(١) الكشاف، جـ ١، صـ ٢٤، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٢) المثل السائر ج٢ ص١٢ تحقيق محي الدين عبد الحميد – المكتبة العلمية بيروت ١٤١٦هـ-١٩٩٥م .

(٣) اللسان ، مادة " مهج "

(٤) اللسان ، مادة " رمس " .

وهكذا أخذت الخنساء على نفسها العهد بهذا القسم ألا تنسى صخرا حتى تدفن في قبرها وفاء له .

وقد نفت نسيانه في غير موضع منه قولها :

لا تخلني أني نسيت ولا بُل ... فؤادي ولو شربت القراحا[1]

ذكرت صخرا إذا ذكرت نداه ... عيل صبري برزئه ثم باحا

فهي تنفي أنها نسيت صخرا، ونفت أن يروى فؤادها حتى لو شربت أعذب المياه وذلك حزنا على فراق صخر .

(١) الديوان صـ ٤١- القراح: الماء العذب – عيل صبري: "قلّ".

البيت الرابع عشر:

فقد ودعت يوم فراق صخر ... أبى حَشَّانَ لذاتي وأنسى

عرفنا في البيت السابق أن الخنساء أخذت العهد على نفسها، وأقسمت ألا تنسى صخرا حتى تفارق الحياة وتدفن في قبرها .

وكأن سائلا سألها لماذا كل ذلك ؟ فأجابت : لأنني ودعت متع الحياة ولذاتها وأنسها يوم فارق صخر الحياة ورحل عن دنيانا ، فالعيش من بعده لا خير فيه ولا طعم له .

وقد عبر عن ذلك شعرها في موضع أخر، وذلك في *قولها :*

أقولُ أبا حسانَ : لا العيشُ طيبٌ ... وكيفَ وقد أفردتُ منك يطيب[1]

قد أشارت الخنساء إلى انهيار شخصيها، وأن اليأس قد بلغ معها مداه، وأن نفسها قد عزفت عن متع الحياة ولذتها، وأن الفرحة فارقتها، وأن الحزن قد حل مكانها إلى الأبد .

وهذا ما عبر عنه سيدنا عمر بن الخطاب كما ذكرنا من قبل " دعوها إنها لحزينة أبدا". فقد تملك الحزن قلبها وسيطر على فكرها وعقلها .

وقد أكدت كلامها وحققته بدخول " قد " على الفعل الماضي في قولها : " فقد ودعت ..".

وقدمت الظرف " يوم فراق صخر ... وهو بداية توديعها وتركها لمتع الحياة ، وهذا مقصود قصدا فعنايتها بإبراز ظرف الزمان وتقديمه على المفعول به " لذاتي وأنسي " هو إبراز لطول المدة التي بين فراق صخر وبين قولها هذا الكلام.

فكأنها تقول : ودعت لذاتي منذ زمن طويل، بدايته يوم فراق صخر، وأيضا – أفاد التقديم : حصر ترك لذاتها وأنسها على يوم فراق صخر وبين قولها هذا الكلام .

([1]) الديوان، صـ ٣٢ .

فالذي يهمها ويعنيها والذي هيمن على فكرها هو فراق صخر، وليس ترك لذاتها وأنسها، ومن ثم يوجد ارتباط وثيق بين هذا البيت وما قبله وذلك في قولها :

" فلا والله لا أنساك أبدا ، كيف تنساه وقد ودعت لذاتها ومتعتها من أجله ؟

إذًا لا يوجد ما يشغلها عنه، فهو حاضر في خاطرها وقلبها وعقلها لا يغيب عنها لحظة.

ومن ثم تتلذذ بذكره مرة باسمه الصريح ومرة بكنيته كما في هذا البيت .

وقد تكرر ذلك كثيرا في شعرها من ذلك قولها :

وكانَ أبُو حسان صخر أصَابَها ∴ فأرغثها بالرُمْحِ حتى أقرت [1]

وقوله:

أودى أبُو حَسّانَ وَاحَسرَتا ∴ وَكَان صَخرٌ مَلك العالية [2]

وفي معظم تكرار الكنية مع الاسم يكون الغرض إظهار التحسر والتلذذ بذكرهما. ولكن التنوع هنا بين الاسم والكنية ألقى بظلاله على الأسلوب فأضفى عليه جمالا ، ومن ثم تطرية وإيقاظا للنفس .

ونلاحظ أن الخنساء جمعت بين قولها : لذاتي وأنسى " بين المتع الحسية في قولها : لذاتي : وبين المتع المعنوية في قولها " وأنسي " وهذه المتع بنوعيها كانت تتمتع بها في حياة صخر ، ومن ثم فقد حرمت هذه المتع بفراقه .

---

(١) الديوان، صـ ٣٤.

(٢) الديوان، صـ ١٢٨.

البيت الخامس عشر:

فيا لهفي عليهِ ولهف أمي أيُصبحُ في الضّريحِ وفيهِ يُمسي؟

هذا هو البيت الأخير الذي ختمت به الخنساء قصيدتها، وهذه الخاتمة أظهرت الخنساء نفسها في قمة انهيارها وشدة هلعها وحزنها ، فقد بدأت باستغاثة وصرخة لإظهار شدة التحسر على ما فاتها ، " بقولها" فيا لهفي عليه ولهف أمي .. والفاء هنا تتلاقى مع الفاءات السابقة في وصف العجلة وسرعة التتابع . وحرف النداء هنا هو "الياء" والمنادى هو "اللهفة" والياء : حرف نداء للبعيد، وقد مكن الشاعرة من امتداد صوتها وإفراغ جزءا من توترها الشديد مع هذا الامتداد، ومن ثم آثرت حرف "الياء " دون غيره مثل " أي والهمزة " لأن المقام لها فهما لنداء القريب ، والياء لنداء البعيد ، وكذلك أرادت بهذا الحرف هنا التأكيد كما قال صاحب " مغنى اللبيب"، " يا " حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكما ، وقد ينادي بها القريب توكيدا "[1] .

واللهفة : اللهَف واللهَف : الأسى والحزن والغيظ والتحسر .

ويقال : نادى لهفه إذا قال يالهفى ، ويقال : يا لهف فلان : كلمة يتحسر بها على ما فات ويقال : يالهفاه ويا لهف أماه "[2] .

إذاً الخنساء لهفت نفسها ولهفت أمها عندما *قالت* :

" فيا لهفي عليه ولهف أمي"

وهذا النداء وراءه حسرة وشدة حزن وذهول، يكشف لنا عن قلب مكروب .

وقد بنت الخنساء أسلوبها على طريقة التخييل بنداء اللهفة وهي لا تعقل، على سبيل الاستعارة المكنية، بتشبيهها بمن يعقل .

---

(١) مغني اللبيب، صـ ٤٨٨.

(٢) اللسان – أساس البلاغة – مادة " لهف ".

وقد نوديت الحسرة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾[1].

وفي قوله تعالى ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [2]وفي قوله تعالى ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [3]

" فإن قيل كيف يجوز إيقاع النداء على الحسرة والويل، وهما لا يعقلان ولا يسمعان النداء ؟

قلنا هذا من المجاز ، والمعنى فيه كأن يقول : يا حسرتنا آن وقتنا .

والمعنى الأخر : انتبهوا إلى حسرتنا .

والعرب توقع النداء على من يفهمه ومن لم يفهمه، على توسعة اللغة مجازا ، كقولهم : يا للعصبية ، ويا للأقيلة "[4] .

وقد عقب الزمخشري على نداء الحسرة في قولة تعالى : " يا حسرة على العباد " بقوله : " نداء الحسرة عليهم كأنما قيل لها : تعالي يا حسرة، فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون، أوهم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ..... [1] .

---

(1) الأنعام : آية ٣١.
(٢) يس : آية ٣٠.
(٣) الزمر : آية ٥٦.
(٤) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر : أحمد السمرقندي المعروف بالحدادي، صـ ٥٨٨، تحقيق صفوان عدنان داوودي – دار العلم – دارة العلوم، بيروت .

إذًا أرادت الخنساء بقولها هذا أن تلفتنا إلى شدة تحسرها وحيرتها، وأن ننتبه إلى حالها.

" ووراء كل ذلك أغراض وأسرار ومذاقات .....وأكثر هذه المواقع تجرى في السياقات المليئة ذات الحس الطاغي والموقف المفعم ، وترى الأداة في كثير منها كأنها صيحة أو صرخة يطلقها الشاعر والبليغ المبين على حد ما نجد كلمات كثيرة في اللغة تمثل في كثير من المواقف قمة الإحساس والحاجة الملحة إلى لفت من يسمع وإيقاظه[٢].

قلنا إن الخنساء لهفت نفسها ولهفت أمها عندما *قالت* : " فيا لهفي عليه ولهف أمي "، ولكنها حذفت حرف النداء في قولها : " ولهف أمي " والأصل أن تقول : فيا لهفي عليه ويا لهف أمي " وجاء الحذف لضيق صدرها ولتزاحم العبرات في هذا الموقف المفعم بالأسى والحسرة ، وكذلك لدلالة النداء السابق عليه ، وربما من أجل وزن البيت – أيضا – .

وعطف لهف أمها على لهف نفسها يفيد شدة الجزع وشدة التحسر وقمة الانهيار .

وقد تكرر نداء لهفتها في ديوانها كثيرا منه *قولها* :

يا لهفَ نَفسي على صخرٍ وقد قَرَّحَت ... خيل لخَيـــلٍ وأقرَان لأقران[٣]

وقولها :

يا لَهفَ نَفسي على صَخرٍ إذا رَكِبَت ... خيلٌ لِخَيلٍ تُنَادى ثم تضطرب[١]

---

(١) الكشاف للزمخشري، جـ ٣، صـ ٣٢٠- ٣٢١، طبعة دار الفكر، بدون .

(٢) دلالات التراكيب، صـ٢٦٢، للدكتور / محمد أبو موسى، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

(٣) الديوان، صـ ١٢١ .

وقولها:

يا لَهفَ نفسي على صخرٍ وقد لهفت ... نفسي إذا التف أبطالٌ بأبطال[1]

وقولها :

يا لَهفَ نفسي على صخرٍ وقد لَهَفَتْ ... وَهَلْ يُردن خبلَ القلب تلهيفي[2]

وقولها :

يا لَهفَ نفسي على صخرٍ إذا ركِبَتْ ... خَيلٌ كأمثال اليعافير[3]

وقد ورد هذا الأسلوب ولكن بدون حرف النداء في مواطن أخرى، ولم أعثر في الديوان على مثل الصيغة التي معنا وهي الجمع بين لهفة نفسها ولهفة أمها .

وإن كانت الصيغة التي بها حرف النداء أكثر من الصيغ التي وردت بدون حرف النداء في ديوان الخنساء .

وبالنظر في هذه الصيغ نجد معظمها مقترنا بذكر الخيل والبطولات، وكأن الخنساء تتحسر وتبكي فروسية صخر التي لا يماثلها فروسية في نظرها .

وتتساءل الخنساء وهي في قمة ذهولها وضياع عقلها : هل يرد القلب تلهيفي على صخر ؟ إن هذه الصورة تحكي قمة انهيارها ، وأي انهيار بعد ضياع العقل ؟

تقول الخنساء :

يالهف نفسي على صخرٍ وقد لهفت ... وهل يردن خبل القلب تلهيفي ؟[4]

وعندما نضم هذه الصورة بجوار صورة لهفتها على نفسها ولهفتها على أمها تكتمل صورة الانهيار وقمة الحسرة والحزن

---

(١) الديوان، صـ ٣١.
(٢) الديوان، صـ ١٠١.
(٣) الديوان، صـ ٩٣.
(٤) الديوان، صـ ٧٠.
(٥) الديوان، صـ ٩٣ .

والوله، ومن ثم ضاقت عليها الأرض بما رحبت وضاقت عليها نفسها، وقد عبر عن ذلك شعرها في قولها :

ضاقت بي الأرض وانقضت مخارمها حتى تخاشعت الأعلام والبيد [1]

فليس غريبا على الخنساء بعد ذلك أن تتساءل في البيت الذي معنا وهو ختام القصيدة أيصبح في الضريح وفيه يمسي ؟

إن كلمة الضريح تحمل في طياتها كل المعاني الحزينة عند الخنساء، بل وعند غيرها إلا أنها هنا لها معنى خاص انفردت به الخنساء .

فقد أصبح أخوها الذي كان حامي الذمار والبطل المغوار ضريحا مطروحا في القبر يصبح فيه ويمسي .

وقد نطق بهذه الحقيقة شعرها إذ *قالت :*

فأصبح اليوم في رمس لدى جدث وسط الضريح عليه التراب مركوم [2]

وقولها ذاكرة كنيته :

أبو حسان كان ثمال قومي فأصبح ثاويا بين اللحود [3]

وقولها :

فأبكي لصخر إذ ثوى بين الضريحة والصفائح
رمسا لدى جدث تذيع بتربه هوج النوافح [4]

والاستفهام في قولها " أيصبح في الضريح وفيه يمسي " استفهام إنكاري وكأن الخنساء تنكر أن يكون صخر في هذا الضريح إلى الأبد " .

---

(١) الديوان، صـ ٥١ .
(٢) الديوان، صـ ١١٤ .
(٣) الديوان، صـ ٤٩ .
(٤) الديوان، صـ ٣٨ .

لقد قلنا من قبل إنها فقدت وعيها وفي قمة انهيارها ، فليس غريبا أن يصدر منها هذا الإنكار بعد أن ضاقت عليها الأرض بما رحبت .

وهذا البيت أشبه بالولولة والنواح الذي وراء الميت عند تشييعه إلى مثواه الأخير . إن الخنساء ضاقت ذرعا، ولم تحتمل فراق أخيها لحظة ما ، ولذلك أبرز الطباق في قولها : " أيصبح ويمسي " هذه المعاناة : إن مابين الصباح والمساء مدة في نظر الخنساء أطول من السنين لأنها تتجدد من خلال صيغة المضارعة : " يصبح ويمسي ".

لقد رسمت لنا الخنساء بهذا البيت صورة تشييع الجنازة ، وهو وقت تبلغ المصيبة أعظمها ، ومن ثم نرى الخنساء في صورة أخرى تعنف الذين يحملون نعش صخر إلى قبره ومنكرة عليهم ذلك، وهذا ما يؤكد الاستفهام هنا .

إذ قالت :

وقائلة والنعش قد فات خطوها	لتدركه يا لهف نفسي على صخر
ألا ثكلت أم الذين مشوا به	إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر ؟
وماذا يوارى القبر تحت ترابه	من الخير يا بؤس الحوادث والدهر[1]

فلقد عنفت الخنساء هؤلاء الذين مشوا بصخر إلى قبره .

ولكنها تساءلت : ماذا يحملون إلى القبر ؟ هل الخنساء تجهل ما يحملون ؟ إنها لا تجهل ذلك، ولكنه تجاهل العارف ؛ لأنها تعرف تماما أنهم يحملون صخرا ، ولكن ذهل عقلها ، وذهب فكرها ، وفقدت تمييزها ومن ثم بالغت في توبيخ الذين مشوا بصخر إلى القبر ، وهذا نكتة تجاهل العارف والذي عرفه السكاكي بقوله :

([1]) الديوان، صـ ٦٠ .

" سوق المعلوم مساق غيره لنكتة . كالتوبيخ والمبالغة في المدح أو في الذم والتدله في الحب والتعريض ... " [1].

وكما عرفت أن النكتة هنا هي : التوبيخ .

وهكذا ختمت الخنساء قصيدتها بهذا المشهد الدامي والحزين الباكي، والتي ظهرت فيها، وهي في قمة انهيارها وشدة تحسرها، بل وشدة يأسها – أيضا – .

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤٢٧ – تعليق نعيم زرزور – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧– وينظر شروح التلخيص ج٤ ص٣٠٣ والإيضاح على البغية ج٤ ص٦٦ – ٤٢٧ .

المحور الخامس
تعقيب وخاتمة

تعقيب وخاتمة

- لا يختلف اثنان على مكانة الخنساء بين طبقات فحول الشعراء، فرثاؤها من أصدق ما وصل إلينا من الشعر العربي لأنها كانت تقول الشعر وكبدها يحترق. ولذلك لما سئلت عن معاوية وصخر : أيهما أوجع وأفجع ؟ قالت : أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد . ومن ثم خرج شعرها عن عاطفة صادقة عبرت به الخنساء عن مشاعر الحزن العميق الذي تغلغل في جسدها .
- ولم تبدأ الخنساء قصيدتها كعادة الشعراء الجاهليين بالمقدمة التقليدية التي كانت سائدة في عصرها . لأنها كانت شديدة التوتر، وعاطفتها متدفقة وفياضة، وقلبها ممتلئ بكل معاني الحزن، فلا حاجة لها إلى مقدمة تمهد لها إلى الغرض الذي تريد الحديث عنه ، فهي تحكي واقعا ملموسا وتجربة مريرة كابدتها بكل جوارحها . لأن صخرا تملك قلبها وفكرها، فقد كان ملئ حياتها ، ومن ثم فهو حاضر وماثل أمام عينيها ليل نهار .
- واهتمت الخنساء بمطلع القصيدة من خلال التصريع في البيت الأول ، وهو مذهب الشعراء المطبوعين المجيدين كما ذكر قدامة بن جعفر ، فهو براعة استهلال من الشاعرة، لأنه أول ما يصافح الآذان ، ومن ثم أحدث تنغيما موسيقيا خلابا طربت له الأذان ، وهشت له النفوس .
- والخنساء لها قدرة فائقة على اختيار الألفاظ التي توصلها إلى التعبير عما تريد . وقد مر بنا كيف كانت ناقدة لشعر حسان بن ثابت ، وشهد لها النابغة بذلك.
- لم نجد في القصيدة كلمة نشاز، أو جملة فيها تنافر، لأن اختيارها للألفاظ كان محكما، فأدت الألفاظ دورها في رسم الصورة الكلية

التي أرادتها الخنساء . ومن ثم جاءت القصيدة لوحة فنية متكاملة متماسكة، يشد بعضها بحجز بعض كالبنيان المرصوص.

- ارتبط الرثاء في القصيدة بالمدح بذكر مناقب صخر التي كان يتمتع بها، لأن الخنساء كانت تقدر القيم الإنسانية والفضائل النفسية ، ولهذا وجدناها تتحدث عن صفات الفتوة والشجاعة والمهابة، وعن حكمته وأنه أوتي فصل الخطاب إلى أخر ما وصفت . فقد أخذت هذه الصفات ثلث القصيدة أو يزيد . وهي في الواقع ترثي وتبكي هذه الفضائل والشمائل التي كانت متجسدة في صخر .
- ولما كانت صورة الحزن متجددة ومستمرة دائما مع الخنساء حرصت الخنساء على أن تشيع هذا التجدد في معظم أبيات القصيدة من خلال صيغ المضارعة مثل : يؤرقني – أمسي – أصبح – تعدى – يأخذ – أرى – يروع – يذكرني – أذكره – أزال – تنوح – أراها – تبكي – يبكون – أعزي – أنساك – أفارق – يشق – يصبح – يمسي .
- جاءت الأفعال الماضية مؤكدة مثل : قد بليت – فقد ودعت – لقتلت نفسي .
- وإذا كانت الخنساء أولت عنايتها بالألفاظ ، فإنها قد وظفت الحروف توظيفا دقيقا مثل : إذا ، إن ، لا . والفاء .
- وكانت الفاء أكثرها ورودا ، وذلك في قولها : فأصبح – فلم أر– فأكرمه – فأمسى – فلا – فقد – فيا . وقد وصفت من خلال هذه الحروف سرعة التتابع .
- جاء استخدامها لأفعل التفضيل في صيغتين : أشد ، أفصل .

- وظفت القيد والاحتراس في المقام المناسب لذلك – في قولها : إذا تعدى ليأخذ حق مظلوم (بقنس)– بغير لبس – وما يبكون مثل أخي .
- كانت عناية الخنساء بالصورة البيانية قليلة جدا بجانب عنايتها بالألفاظ والحروف ، فقد كانت تعتمد في وصفها على الوصف المباشر .
- الارتباط الوثيق بين بداية القصيدة وبين وسطها وبين نهايتها ؛ ففي البداية أسندت التأريق إلى التذكر في وقت المساء ، ولكنها في الوسط خصت التذكر عند طلوع الشمس وعند الغروب .
- وفي الخاتمة أبرزت أثر كل ذلك فأظهرت نفسها امرأة هلوعا في قمة انهيارها ويأسها . وبالجملة فقد كانت الخنساء غير متماسكة .
- رسمت الخنساء صورة المأتم ومافيه من نواح وبكاء وصراخ ، استطاعت أن تعطي لنا صورة متكاملة لما يحدث للنساء الثكالى . وقد عبرت عن ذلك كلماتها " باكية تنوح ليوم نحس " أراها والها تبكي أخاها" حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي " "ولولا كثرة الباكين حولي " عشية رزئة ".

"فقد ودعت يوم فراق صخر أبي حسان لذاتي وانسي

- وأخيرا صورة الانفجار والانهيار واليأس التي كانت عليها الخنساء، وذلك في قولها:

فيالهفي عليه ولهف أمي أيصبح في الضريح وفيه يمسي

- **الجانب الصوتي والموسيقي في القصيدة :**

إن من غايات البلاغة العربية إيصال المعنى إلى قلب السامع، ولا ينفصل تنغيم الكلام وموسيقاه عن بلاغته، لأن التنغيم الموسيقي جزء

أساسي من البنية الشعرية بجانب اللغة والمعاني وهو عامل جذاب ومشوق .

وقد أدى حسن اختيار الخنساء لألفاظ القصيدة إلى إحداث تنغيم موسيقي خلاب أثار الحس .

ومن المعلوم أن شعر الرثاء يتطلب أنغاما معينة تختلف عن بقية الأغراض الشعرية . وقد وفقت الخنساء في اختيار حرف (السين) المتحرك رويا لقصيدتها .

وحرف " السين " من الحروف المهموسة تساعد على انتشار نغمة الحزن والهدوء ، ومن ثم يلاءم الصوت الحزين الهامس الباكي، ولا يخفى أن ذلك ساعد الخنساء على تصوير حالتها النفسية التي توزعت بين الحسرة والأسى على الفراق ، واللوعة على طول الشكوى والمعاناة .

إن أبيات القصيدة تتمتع بحس موسيقي تجاوز الوزن العروضي للقصيدة وهو هنا "البحر الوافر" .

وأود أن شير إلا أن الربط بين البحر وموضوع القصيدة ليس قاعدة يلتزم بها الشاعر . ولا أدل على ذلك من أن الخنساء كان شعرها كله في غرض واحد وهو الرثاء – وإن اختلط بمدح المرثى، فإننا نجد قصائدها قد جاءت على بحور متعددة وهي : البسيط – الطويل – الوافر – الكامل – الرمل – المتقارب – الخفيف – السريع – مجزوء الكامل ومجزوء الرمل .

بالإضافة إلا أن معظم حروف الهجاء جاءت رويا لقصائدها، ولاشك أن هذا يدل على مقدرتها الفنية وموهبتها المتمرسة ، وحسها المرهف ، وقدرتها الفائقة على توظيف كل هذه البحور في غرض واحد ،وهذا دليل التمكن والاقتدار .

وموسيقى القصيدة ليس فيها رتابة لتنوع تنغيمها . حيث إن الأبيات التي مدحت فيها صخرا وذكرت مناقبه تختلف عن أبيات القصيدة الأخيرة التي فيها النواح والبكاء .

فالأبيات الأخيرة بلغت قمة التوافق في البناء الصوتي حيث بلغ انفعالها مداه .

وكأن الخنساء استعذبت هذا التنعيم فأكثرت منه، ومن ثم جودته، حتى يكون كفاء لنفسها التي تتموج فيها أحزانها الشديدة .

ومن خلال التنغيم الموسيقي استطاعت الخنساء أن تصور حالتها وإبرازعمق أحزانها وعاطفتها المتأججة .

وبالكلام عن الجانب الموسيقي في القصيدة نكون قد وصلنا إلى النهاية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي – دار المعرفة ، بيروت لبنان – بدون .
- أساس البلاغة للزمخشري تحقيق الأستاذ . عبد الرحيم محمود – دار المعرفة بيروت لبنان – ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، المطبعة الشرفية ، ١٣٢٥هـ.
- الإعجاز البلاغي د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م .
- الأعلام للزركلي – دار العلم للملايين بيروت – لبنان .
- الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني – تحقيق عبد الستار فراج – الدار التونسية للنشر – تونس – طبعة ١٩٨٣م .
- الإيضاح للخطيب القزويني شرح وتعليق د . محمد عبدالمنعم خفاجي – دار الكتاب اللبناني الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي – مطبعة صبيح الطبعة الثانية – بدون.
- البيان والتبيين للجاحظ . تقديم وشرح د. على أبو ملحم – دار مكتبة الهلال الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م .
- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان– تحقيق د . هادي الهلالي – عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق د/ حنفي شرف لجنة إحياء التراث الإسلامي – بدون .
- التصوير البياني د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة بالقاهرة – الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧ م .
- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي – تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الثانية – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .
- خصائص التراكيب / د. محمد أبو موسى – مكتبة وهبة بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠ م .
- الخنساء شاعرة الرثاء – د. محمد حمود – دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
- الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي د.علي نجيب عطوي – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .
- دائرة المعارف – بطرس البستاني دار المعرفة بيروت .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود شاكر – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢م .
- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى – مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧م .
- ديوان الأعشى دار صادر بيروت ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .
- ديوان الخنساء – المكتبة الثقافية – لبنان – بدون .
- ديوان الخنساء تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود – دار الفكر اللبناني .

- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري – تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأخيرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- الرثاء – شوقي ضيف – دار المعارف القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٥٥م.
- زهر الآداب للحصري – تحقيق على البجاوي – دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٦٩م
- شرح التلخيص – أكمل البابرتي – تحقيق د. محمد صوفية – المنشأة العامة للنشر والتوزيع – طرابلس . ليبيا – الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ- ١٩٨٣م .
- شروح التلخيص . دار الإرشاد الإسلامي – بيروت – بدون .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق د. مفيد قميحة – نعيم زرزور – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م .
- الصبغ البديعي د. أحمد إبراهيم موسى – دار الكتاب العربي بالقاهرة – طبعة وزارة الثقافة ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩م .
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام تحقيق محمود شاكر .
- العقد الفريد لابن عبد ربه – تحقيق محمود عبد القادر شاهين – المكتبة العصرية بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م
- علوم البلاغة في البيان والمعاني والبديع للشيخ أحمد المراغي – دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م .
- العمدة لابن رشيق – شرح وضبط د. عفيف حاطوم – دار صادر بيروت

- العمدة لابن رشيق – تحقيق محي الدين عبد الحميد– دار الجيل بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ /١٩٨١م .
- فتح الباري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – محب الدين الخطيب – دار الريان للتراث بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- قراءة في الأدب القديم د. محمد أبو موسى – مكتبة وهبة بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٩م.
- الكامل في اللغة والأدب مؤسسة دار المعارف – بيروت – بدون .
- الكشاف للزمخشري – دار الفكر – بدون .
- الكشاف للزمخشري – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .
- المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر أحمد السمر قندي المعروف بالحدادي – تحقيق صفوان عدنان داوودي – دار العلم – دارة العلوم بيروت .
- المصباح في المعاني والبيان والبديع بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم – دار الكتب العلمية بيروت .
- مغنى اللبيب لابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .
- مفتاح العلوم للسكاكي – تعليق نعيم زرزور – دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م .
- نقد الشعر لقدامه بن جعفر – تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي – دار الكتب العلمية بيروت .
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي – تحقيق د. بكري شيخ أمين – دار العلم للملايين – بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

أولا : الآيات القرآنية :

م	الآية القرآنية	رقمها	السورة	رقم الصفحة
١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	٢٠٠	آل عمران	١٣٤١
٢	﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾	٣١	الأنعام	١٤٠٩
٣	﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾	٥٧	الأنعام	١٣٨٧
٤	﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾	٤٥	النور	١٣٦٠
٥	﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾	٣٠	يس	١٤٠٩
٦	﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾	٥٦	الزمر	١٤٠٩
٧	﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾	٦٧	الزمر	١٣٥٦
٨	﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾	١٦	فصلت	١٣٩٦
٩	﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾	٤	قريش	١٣٨٩

ثانيا : الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	متن الحديث	رقم الصفحة
الأول	" إن من الشعر حكمة "	١٣٣٢
الثاني	" إن من الشعر حكما "	١٣٣٢